نقوش عربية قبل الإسلام

زكريا محمد





نقوش عربية قبل الإسلام

زكريا محمد

2015

زكريا محمد

نقوش عربية قبل الإسلام

الطبعة الأولى، 2015

دار الناشر

رام الله، فلسطين/ هاتف 2961911 2 00970
عمـّان، الأردن/ هاتف 5694861 6 00962

الأهلية

الأردن، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ♦ منشورات 2015

ISBN: 978-9950-385-42-9

لوحة الغلاف: زكريا محمد
التصميم والإخراج: مؤسسة الناشر

المحتويات

مقدمة

هذا الكتاب يمســك بأهم أربعة نقوش عربية من فترة ما قبل الإســلام، ويعيد قراءتها من جديد. وهذه النقوش هي:

1. نقش عين المريفق، أو (عين عبدات) حسب التسمية الشائعة، من النقب في فلسطين، وتوقيته يقع بين عامي 80 – 125 م.
2. نقش النّمارة، من سوريا، وهو مؤرخ بالعام 328 م.
3. نقش أُسيس، من سوريا أيضا، وهو مؤرخ بالعام 528 م.
4. نقش حرّان اللجاة، من سوريا كذلك، وهو مؤرخ بالعام 568 م.

بالتالي، فأقدم هذه النقوش، نقش عين المريفق، يبعد عن لحظة انبثاق الإســلام خمسة قرون تقريبا. أما آخرها فيقع فقط قبل عامين من مولد النبــي محمد، حسب التوقيت الشائــع لمولد الرسول (570م). وهذا يعني أن النقوش تغطي قرابة خمسة قرون. النقشان الأولان كتبا بالخط النبطي، أما الأخيران فقد كتبا بالخط العربي.

وحين نقــول أن الكتاب يعيد قراءة هذه النقوش، فنحن نقصد أنه يعيد قراءتهــا بشــكل مختلف جذريا. وهذا يعني أنــه يستخرج منها غير ما كان قد استخرج من قبل. ففيما يخص نقش عين المريفق مثلا، يمكن القــول أن القراءات السابقة لــه لم تكن أكثر من محاولات غير ناجحة لتلمســ معنى ما للنقش. بالتالي، يصح القول أن قراءتنا له هي، بشكل ما، القراءة الأولى فعليا.

أمــا في ما يخص نقش النّمارة، فقد كانت هناك عشرات المساهمات حولــه على مدى أكثــر من قرن من الزمان. مع ذلــك، فقد ظل النقش مفهومــا بشكل جزئي فقط. فهناك مناطق منه ما زالت مبهمة، كما أن

مناطق أخرى قرئت بشكل خاطئ تماما. ونحن نعتقد أن قراءتنا له حلت غوامضه وألغازه. أما نقش جبل أسيس، المكتوب بخط عربي واضح نسبيا، فقد ظل الغموض يلف عددا من نواحيه. وقد أزال الكتاب هذا الغموض، ناسفا القراءات السابقة نسفا يكاد يكون تاما. وبخصوص نقش حران اللجاة، فقد قدم الكتاب مقترحين ربما وضعا النقش تحت ضوء جديد.

وتكمن أهمية إعادة قراءة هذه النقوش في أنها، إذا استثنينا ثلاثة أو أربعة نقوش صغيرة أخرى، هي النقوش العربية الوحيدة التي نملكها من فترة ما قبل الإسلام. بذا فقراءتها بشكل سليم يعد أمرا حاسما في فهم تطور اللغة العربية، كما وصلتنا في القرآن والشعر الجاهلي. أكثر من هذا، فإن نقش عين المريفق، أقدم هذه النقوش، نقش حاسم في ما يخص تاريخ الشعر الجاهلي، الذي بدا كما لو أنه انبثق هكذا من دون مقدمات. فالنقش يعطينا لمحة عن هذه المقدمات المفقودة. فهو، حسب قراءتنا له، مكون من شطر بيت شعري، ومن أغنية جنائزية جماعية. وهذا يعني أن في يدنا الآن، ولأول مرة، وثيقة شعرية تحمل شطر بيت شعري موزون، نقشت على الحجر قبل شعر حسان بن ثابت مثلا بأكثر من 500 عام. وهو ما سيضع النقاش حول تاريخ الشعر الجاهلي، وحول صحته أو انتحاله، على سكة مختلفة تماما. بناء عليه، فنحن لا نعيد قراءة نقوش فقط، بل نعيد في الحقيقة قراءة تاريخ اللغة العربية، وتاريخ النص العربي.

وأخيرا، نعتقد أن هذا الكتاب، الذي كشف عن مشاكل فظيعة اعترت قراءات الباحثين الأجانب للنقوش العربية القديمة، يشكل في الواقع وصية ما تقول: لا تثقوا بأي قراءة سائدة لأي نقش عربي من قبل الإسلام قبل أن تضعوها على منضدة الشك، وقبل أن تتفحصوها بأعينكم وأصابعكم. فأنتم، كأبناء لهذه اللغة، من تملكون، في نهاية المطاف، الإحساس اللازم لفهم هذه النقوش، وفض مغاليقها.

نقش النّمارة

علـى مبعدة مائة كيلومتـر شرقي مدينة السويـداء السورية، وفي نقطة تبعد ستين كيلومترا عن آخر قرية مسكونة، تقع منطقة النّمارة. وهناك، في هذه المنطقة المنعزلة على أطراف البادية السورية، عثرت بعثة آثار فرنسية، برئاسـة رينيه دوسو، في العام 1901، على حجر منقوش من البازلـت بين أنقاض مبنى مقام على تلة صغيرة. وفي بداية عام 1902 أعلن دوسو أنه جرى التوصل إلى أن النقش مؤرخ بالعام 328 م – أي أنه سبق الإسلام بما يقرب من 300 عام– وأن لغته عربية، لكن مكتوبة بالخط النبطي، وأن المبنى ضريح لملك عربي.



أما الملك العربي فهو (امرؤ القيس بن عمرو)، الذي وصفه النقش بأنه (ملـك العرب كلـه). لكن الأشد إثارة تأكيد دوسـو لنا أن هذا الملك هـو ذاته ملك الحيرة الأسطوري (امرؤ القيس بن عمر)، الذي تدعوه المصادر العربية بلقب (المحرّق) أو (المحرّق الأول).

وقد سمي هذا النقش باسم (نقش النّمارة)، آخذا اسمه من اسم المنطقة التي عثر عليه فيها، متحولا إلى أشهر نقش في تاريخ اللغة العربية.

الحدث الثقافي الكبير

وبهـذا يكـون العام 1901 قـد شهد حدثـا خطير الشأن فـي التاريخ الثقافي العربي:

أولا: فقـد حصلنا فيـه على أقدم نقش عربي– ظـل كذلك حتى نهاية السبعينات من القرن الماضي– مكتوب بالحروف النبطية، يعرض لنا لمحة عن كيف كانت اللغة العربية قبل نزول القرآن بحوالي 300 سنة تقريبـا. كما يعرض لنا لمحـة عن كيف انبثق الخـط العربي من رحم الخـط النبطـي. فالخط النبطي الـذي كتب به النقش يمثـل الأبجدية النبطيـة في أطوارها الأخيـرة، حسب غالبية الباحثيـن. إنها الأبجدية النبطيـة وهي تتحول إلـى أبجدية عربية. بذا فكثير مـن حروفها يشبه الحروف العربية التي عرفناها لاحقا.

ثانيـا: أن الملك العربي الأسطوري، امـرؤ القيس بن عمرو اللخمي، ملـك الحيرة، الـذي حدثتنا عنه المصـادر العربية، خـرج من كتاب الأسطـورة فجأة إلى كتاب التاريخ بفعل نقش فريد من نوعه، عثر عليه في الشام لا في جنوب وسط العراق، ولا في الجزيرة العربية.

ثالثـا: أن مجال سلطة هـذا الملك، حسب قـراءة دوسو للنقش، كان مجـالا شبه امبراطوري، يمتد من جبـل العرب في سوريا حتى حدود اليمـن، بذا فهو حاكم (لـم يبلغ ملك مبلغه) من قبل، كما يقول النقش ذاته، حسب قراءة دوسو.

رابعـا: أن النقشـ يعلن هوية امـرئ القيس العربية علـى الملأ، وبكل وضـوح، قائـلا: «هذا ضريـح امرئ القيسـ بن عمرو ملـك العرب كلهـا». وهذا تصريح خطير جدا. فهو يظهر، ولأول مرة، تبلور هوية ما للعرب قبل الإسلام بوقت طويل.

إنه، إذن، نقش خطير الشأن، والعثور عليه حدث ثقافي كبير.

ترجمة دوسو

وقد نشر دوسو أول ترجمة كاملة للنقش عام 1907. لكنه ظل يجري تعديـلات على الترجمـة حتى نشر آخر نسخة له عـام 1955. أي أنه عمل عليـه لأكثر من نصف قرن. وأدناه قصّه (تتبعه) للحروف النبطية للنقش، ورسمه له بالحروف العربية:

Dussaud's tracing of al-Namārah Nabataean inscription

Dussaud's letter-by-letter Arabic transcription and reading

تِي نفسُ امرءِ القيس بر عَمرو مَلِك العرب كُلّه ذو أَسَرَ التاج

ومَلَكَ الاسدين ونزارو ومُلوكهم وهَرَّبَ مَحجو عكدى وجاء

بِزَجاي في حبّج نجران مدينت شمّر ومَلَكَ معدّو وبيّن بَنيه

الشعوب ووكَّلهُنَّ فارِسو لِرُوم فلَمْ يبلغ مَلِك مبلغَهُ

عكدى هَلَكَ سنت 223 يَوْم 7 بِكسلول بالسعْد ذو وَلَدَهُ

تقصّي دوسو لحروف النقش النبطية، وتحته النص بالحروف العربية

وهكذا، فنص النقش يقول بعربيته القديمة حسب دوسو:

1. تي نفس امرء القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التاج
2. وملك الأسدين ونزارو وملوكهم وهرّب محجو عكدى وجاء
3. بزجاي في حبج نجران مدينت شمر وملك معدو وبين بنيه

4. الشعوب ووكلّهم فارسو لروم فلم يلغ ملك مبلغه
5. عكدي هلك سنة 223 يوم 7 بكسلول بالسعد ذو ولده.

وفي وقت لاحق عاد دوسو وقرر أن كلمة (وكلهن) في السطر الرابع يجب أن تكون بالميم (وكلهم).

صورة حقيقية أم مزيفة؟

وهكذا، فقد قدم لنا نقش مكون من ستة أسطر، وما يقرب من خمسين كلمة، أكثر بكثير مما يمكن توقعه. فوق ذلك، فإن صورة الملك امرئ القيس، التي استخرجها الباحثون من النقش، صورة مهيبة حقا، وشبه امبراطورية. والسؤال الآن بعد مرور أكثر مائة وعشر سنوات على اكتشاف النقش هو: أتعكس هذه الصورة عن الملك صاحب النقش وعن ملكه، الحقيقة الفعلية، أم أنها تعكس تخيلات الباحثين حوله، وحول مملكته؟

وجوابنا على السؤال: نعتقد أنها صورة غير حقيقية، ونظن أن هذه الصورة ابتدعت ابتداعا انطلاقا من أمرين اثنين:

الأول: سلسلة من أخطاء القراءة والفهم نتجت، في ما نعتقد، عن عدم قدرة الباحثين الغربيين على فهم دقائق اللغة العربية وتركيباتها المعقدة، وعلى إدراك غنى جذورها وتعدد معاني هذه الجذور.

الثاني: الوهم في تحديد صاحب النقش. فما إن قرئ الاسم (امرؤ القيس بن عمرو) حتى حكم فورا بأنه هو ذاته امرؤ القيس بن عمرو اللخمي، ملك الحيرة الشهير.

وقد اشتبكت الأخطاء والأوهام فأدت إلى الخروج بالصورة المزيفة. ففي اللحظة التي رُبط فيها صاحب النقش بصاحب الحيرة فقد أعمي النص وفقدنا القدرة على فهمه، حسب اعتقادنا. أي أن

دخول الحيرة وملكها على الخط جنى على النقش، وشوشنا، وأخر فهمنا له. فما دمنا قد قررنا أن هذا هو امرؤ القيس ملك الحيرة، فإن قــراءة كل كلمة فــي نص النقش سوف تتأثر، بهــذا الشكل أو ذاك، بهذا الحكم المبدئي، أو تنبثق منه، وعينا ذلك أم لم نعه. فاسم ملك الحيرة مثــلا يستدعي الفرس، إذ كان كمــا يفترض وكيلا لهم. من أجــل هذا، فقد عثر الباحثون علــى الفرس في النقش. واسم الفرس يستدعــي ملوكهــم وتيجانهم، لذلــك فقد جرى العثــور على هذه التيجــان في النص أيضــا. كما أن اسم ملك الحيــرة مرتبط بأعماق الجزيــرة العربية، لذا فقد عثرنا في النصــ على غزوات لهذا الملك في نجران اليمن.

بــذا، فالصورة التي افترضــ أن النقش يعرضها هي فــي الواقع صورة موجــودة في أذهان الباحثيــن، وليست منتزعة مــن النقش. لقد أرغم النقش، بشكل ما، على تأييد هذه الصورة.

غير أن العقود الأخيرة أرست الأسس لتعديل هذه الصورة. فقد حدثت عدة تطورات جعلت من إعادة قراءة النقش ضرورة:

أولا: التحسينات المتواصلة علــى قراءة رينيه دوسو لبعض الكلمات، وهي القــراءة التي كانــت أساس كل القــراءات اللاحقــة. تراكم هذه التحسينــات بالتدريج أوصل إلى لحظة بدا فيها وكأن نص دوسو على وشك أن يفقد تماسكة.

ثانيــا: أنــه صار بين أيــدي الباحثين صــور جيدة للنقشــ، بالتالي، لم يعــودوا ملزمين بتقصــي دوسو لحروفه، أو بالنسخــة المضغوطة التي أنتجها عنه. وهي نسخة من الورق الرطب يجري ضغطها على الحجر للحصــول على صــورة سلبية للنقش. ويذكرنا بيلامــي أن اول صورة نشــرت للنقش كانت فــي عام 1965. أي بعد أربعــة وستين عاما من العثور عليه. ثم حصلنا على صور أخرى لاحقا.

ثالثـا: أن عددا أكبر مـن الباحثين أتيح له أن يتلمس النقش بيديه وأن يتبصره بعينيه في متحـف اللوفر بباريس. وحتى عام 1983 كان عدد الذيـن اختبروا النقش مباشرة ثلاثة باحثيـن فقط، كما يخبرنا بيلامي. أما الآن فالأعداد تتزايد.

رابعـا: أن السنوات العشرين أو الثلاثيـن الأخيرة شهدت اهتماما غير عـادي ببدايات الإسـلام (الإسلام المبكـر). هذا الاهتمـام أدى إلى مضاعفـة الاهتمام بالنقوش العربيـة قبل الإسلام. وهو ما انعكس على زيـادة عدد المهتمين بنقش النّمارة، الأمر الـذي أدى إلى اقتراحات متعددة لحل غوامضه.

انطلاقـا من هذا كله، أخذت الصورة القديمة، التي استخرجها دوسو للملـك صاحب النقش، تتغير. ومادتنا هـذه راغبة في أن توصل هذا التغيير إلى مداه. فامرؤ القيس ليس (ملك العرب كلهم)، كما أنه ليس شاهنشاها يحكـم امبراطوية عربية بين فارس والـروم. إضافة إلى أنه ليس هناك فرس وروم في النص أصلا. أمـا المساحة الجغرافية التي يتحـدث عنها النقش فسوف تتقلص، مقلصة معها حـدود مملكة امـرئ القيس جاعلة منه حاكما محليـا على أطـراف الولاية العربية الرومية في بلاد الشام.

غيـر أن هـذا كله سيؤدي، من ناحية أخرى، إلـى إظهار صورة أخرى لامـرئ القيس بـن عمـرو، باعتباره بطـل مشاريع مدنيـة لا مشاريع حربيـة. كما أنه سيـؤدي إلى ترسيخ القيمة اللغويـة لنقش النّمارة، بل وإلى زيادتها، باعتباره أقـدم نقش عربي نعرفه، إذا استثنينا نقش (عين المريفـق) أو (عين عبـدات) الصغير الغامض، في النقـب بفلسطين، والذي عثر عليـه عام 1979، ونشرت صورة له في الثمانينات. ففهم النص بشكل صحيح سيـؤدي إلى فهـم أفضل لتطور اللغـة العربية، وكيف وصلت بنا إلى لغة القرآن.

ورغـم أن الغالبية الساحقة مـن الباحثين تقر بأننا فـي (نقش النّمارة)

مع نقش عربي، فإن غموض مناطق ليست قليلة منه، جعل كثيرين يعتقدون أن لغته العربية ملوثة بشكل ما بالنبطية أو الآرامية، أو بهما معا. لكننا نعتقد أن هذا الحكم نابع من عدم قدرة الباحثين على فهم بعض الكلمات والعبارات العربية. فكلما استعصت كلمة أو تعبير جرى البحث عن حل لأمرها عبر النبطية أو الآرامية. عليه، فلا يمكن الحديث عن تلوث نص النقش قبل أن تتم قراءته كاملا بشكل مرض، أي قبل أن يتبدد غموض المناطق المبهمة فيه. وعند تبددها سيتضح أن كانت لغته العربية صافية، أم أنها ملوثة بتأثيرات أخرى.

الأسطر والموضوعات

وقد اعتاد الباحثون على التعامل مع نص النقش سطرا سطرا. وسوف نتبع الطريق ذاته. لكننا سنُقدم، من ناحية أخرى، على تقسيم النص إلى موضوعات من أجل حسن فهمه. ونحن نقترح أن النص يتحدث عن أربعة أمور:

أولا: التقدمة: فمن كتب النقش على حجر الضريح أراد أن يعطي القارئ فكرة عن من يكون امرؤ القيس بن عمرو. وهذه التقدمة تشمل السطر الأول كله. وآخر هذا السطر غامض إلى حد ما. فالحروف مزدحمة وصغيرة، بحيث تظل قراءة الكلمات غير أكيدة.

ثانيا: أما السطران الثاني والثالث، فيحددان لنا مجال سيطرة هذا الملك، أي القبائل والأراضي التي يسيطر عليها، باستثناء الكلمتين الأخيرتين في السطر الثالث، فهما ينتميان للموضوع الثالث.

ثالثا: الأمر الثالث يتعلق بمنجز محدد لفترة حكم امرئ القيس بن عمرو، عرضه لنا النقش بدءا من نهاية السطر الثالث وحتى نهاية السطر الرابع. وقد كانت هذه المنطقة من النص هي الأكثر غموضا وعصيانا بالنسبة للباحثين. وسوف تكون مساهمتنا الكبرى متعلقة بهذه المنطقة على الخصوص، إضافة إلى مناطق محددة من السطر الأول.

رابعا: الموضـوع الأخير يتعلق بنهاية امرئ القيس وتاريخها، وهذا معروض في السطر الخامس كله.

وأدناه تقطيعنا الخاص للنص إلى كلمات. وتقطيع النص قضية رئيسية. فهو يعكس فهم الباحث له ولما يبوح لنا به:

1. تي نفس مر القيس بر عمرو، ملك العرب كله، ذو أسر التاج
2. وملك الأسدين، ونـزرو، وملوكهم، وهرب مذحجو– عكدي، وجا–
3. بزجـي في رتج نجرن، [التي هي] مدينة شمرو، [الذي هو] ملك معد. وبزل بيباه
4. الشعوب، ووكلهم، فرسو لدّوم. فلم يبلغ ملك مبلغه.
5. عكدي هلك سنة 223 يوم 7 بكسلول بلسعد ذو ولده (أو والاه)

وقبـل أن نبدأ بالنص سطرا سطرا، نود أن نشير إلى أننـا سنستند أساسا إلى عرض بيلامـي المفصل للقراءات المقترحـة التي قدمت للكلمات غيـر الواضحة في النقش، حتى حين لا نذكر ذلـك. ولا يمكن تشبيه عرض بيلامي بمقترحاتـه الخاصة لقـراءة بعض الجمـل والكلمات. فعرضه مفصل ودقيق وشديد الأهمية لمن يريد قراءة النقش، في حين أن مقترحاتـه التي قدمها لحل بعض الغوامض، كانت غير سليمة في غالبية الحـالات. مع ذلك فبعض هذه المقترحـات كان مهما لأنه فتح الباب أمام إمكانية كسر (استفراد) قراءة دوسو. فمجرد وضع احتمال آخر في مواجهة (ديكتاتورية) قراءة دوسو، يعد تقدما جديا في بعض اللحظات.

السطر الأول

قـراءة هذا السطـر، أو بشكل أدق نصفه الثانـي، تشكل مفتاح النقش كله. فهو الذي يحدد لنا من هو صاحبه. أي أنه يضع الإطار العام لقراءة باقـي النقش. وسيكون تركيزنا علـى المناطق التي وضعنا تحتها خطا

في النص. فهذه المناطق هي التي سنقدم فيها قراءة جديدة ومختلفة. أما المناطق الأخرى فسنسير فيها عموما على القراءة السائدة:

1. تي نفس مر القيس بر عمرو، **ملك العرب كله، ذو أسر التاج**

وحسب قراءة دوسو يقول السطر:

هذا قبر امرئ القيس بن عمرو، ملك العرب كلهم، الذي حاز التاج.

وكما هو واضح فهناك تأثيرات بسيطة للنبطية على لغة السطر. فهو يستخدم كلمة (بر) بدل (بن) العربية. لكن من المحتمل أنها أخذت كصيغة، أي كشكل، لكنها كانت تنطق فعليا (بن) بالنون لا بالراء. كما أن هناك أيضا الواو النبطية في الاسم عمرو، وهو تأثير يمتد إلى السطر الثاني حيث نجد الواو في آخر الأسماء البسيطة: مذحجو، وشمرو، إلى آخره. وقد أزيحت هذه الواو في الكتابة العربية اللاحقة، ولم يبق لها أثر إلا في الاسم (عمرو) كي تفرق بينه وبين الاسم (عمر).

على كل حال، فما زال استخدام كلمة (نفس) في النقش محيرا. فما معنى (نفس) هنا بالضبط؟ أتعني القبر، أم الضريح؟ وإذا عنت أحدهما فلم يؤنث النقش كلمة القبر أو الضريح؟ فـ(تي) اسم إشارة للمؤنث: «وللمؤنَّث تا وتي وتيكَ وتِلْكَ وذي وذِه وهي مبنية كلُّها» (ابن سيدة، المخصص). وإذا كانت (نَفس) هنا بمعنى الروح، فكيف يكون ذلك؟ أي كيف نكون مع ضريح أو قبر للروح؟ فليس معهودا أن العرب في الجاهلية كانوا يعتقدون أن الروح تدفن في قبر. فقد كانت الروح عندهم تخرج من الجسد عند الموت على شكل هواء (نَفَس) أو على شكل (دم)، والدم أيضا في العربية يسمى (نَفْس). خروج الروح على شكل هواء هو الموت العادي، أي موت القضاء والقدر، أي (الموت الأبيض). أما خروجها عبر القتل والجرح فهو (الموت الأحمر). بناء عليه، يصعب قبول فكرة قبر للروح.

غير أن لفظة «نفس» تعني الجسد أحيانا في العربية: «والنَّفْس: الجَسَد» (لسان العرب). بناء على هذا فمن المحتمل أن النقش يقول هذا (جثمان) امرئ القيس. لكن الجثمان أتى هنا بلفظة مؤنثة، وهذا ما جعل النقش يشير إليه باسم الإشارة المؤنث: «تي». هذا واحد من الاحتمالات على الأقل.





صورتان لضريح امرئ القيس من التسعينات

Michael C. A. Macdonald, Transformation and continuity"
at al–Namara: Camps, settlements, forts, and tombs

وعلى كل حال، فإن نقش أم الجمال الثاني، أي نقش أم الجمال العربي، يستخدم هو الآخر كلمة نفس، لكنه يستخدمها مع كلمة قبر: (دنه نفسو قبرو). وقد فهم هنا أن نفس تعني: شاهدة قبر، نصب، أو ما إلى ذلك: هذه شاهدة قبر، أو: هذه مسلة قبر، أو هذا نصب قبر. كما أن بعض النقوش النبطية هي الأخرى تستخدم صيغة النفس والقبر معا. فقد ورد في أحد النقوش الجنائزية: (دنه /نفسا/ وقبرتا/ دي/ عبد/ عدنون...). وقد فسرت هكذا: «هذه المسلة والمقبرة التي عمل (أنشأ) عدنان...» (الذييب، الرياض، 1998، ص 160). وهكذا، فكلمة (نفسا) النبطية قرئت هنا بمعنى: المسلة، او النصب. في حين قرئت كلمة (قبرنا) على أنها مقبرة.

بالتالي، يمكن القول أن أمر كلمة «نفس» في نقش النّمارة يظل غامضا إلى حد ما. مع ذلك، فإن هذا الغموض لا يؤثر على فهمنا للنقش عموما، سواء تعلق بضريح، أو قبر، أو نفس، أو نصب، أو حجر شاهدة.

ملك العرب

نأتي الآن إلى الجملة الأهم في السطر وفي النقش جميعه، وهي الجملة التي قرأها دوسو على أنها: «ملك العرب كله».

وثمة، في ما نعتقد، مشكلة كبيرة في فهم دوسو لها، وهو الفهم السائد والمقبول عموما. والمشكلة قواعدية. فبناء على القواعد العربية لا يستطيع امرؤ القيس أن يكون ملكا للعرب كلها، إن كنا نعتقد أننا مع نص عربي كلاسيكي فعلا. هذا مستحيل من الزاوية القواعدية. فكلمة العرب كلمة مؤنثة: «العُرْب والعَرَب: جيل من الناس معروف، خلاف العجَم... مؤنث» (لسان العرب). أما الضمير في كلمة (كله)، والذي يفترض أنه يعود إلى العرب، فمذكر. بالتالي، فنحن مع تناقض قواعدي لا يمكن ردمه. فلو أن الأمر يخص «العرب» فعلا لكان النص قد قال: (ملك العرب كلها). لكنه قال: «كله» وليس «كلها».

هذا التناقض القواعدي يفرض علينا إما أن نعيد قراءة كلمة «العرب» أو أن نعيد قراءة «كله». لا مجال أمامنا سوى هذا، إلا إذا افترضنا أن لغة النقش غير عربية، أو أنها عربية مشوهة. وافتراض أن لغة النقش ليست عربية كلاسيكية صعب المرور، خاصة حين نجد في النص الجملة البليغة التي تقول: «فلم يبلغ ملك مبلغة». فهذه ليست جملة عربية فقط، بل جملة مصوغة على نمط الشعر الجاهلي، بل وعلى النمط القرآني ذاته. أما افتراض أننا مع لغة عربية مشوهة فافتراض يفتح الباب لمخالفة المنطق اللغوي كلما استعصت علينا كلمة من كلمات النقش. وهذا أمر يوصل إلى مزالق لا نهاية لها.

أما بيلامي فقدم لنا، من دون أن يكون مهموما بالتناقض القواعدي الذي أشرنا إليه، اقتراحا يقوم على إزاحة كلمة «كله» من الطريق. إذ قرأ الكلمة المعنية على أنها: «ولقبه» بدل «كله». بالتالي، فما بعدها يجب أن يكون هو اللقب. وهكذا صرنا حسب بيلامي مع جملة: «ولقبه ذو أسد ومذحج». والحق أن ثمة نقطة مهمة في قراءة بيلامي، وهي تخص كلمة «ذو». فقراءته تجعل «ذو» بمعنى صاحب. فحين نقرأ «ذو أسد ومذحج»، فالمعنى: صاحب أسد ومذحج. وهذا هو المعنى الرئيس لكلمة «ذو» في العربية. أما قراءة دوسو فتجعلها بمعنى الذي: «الذي أسر التاج». قراءة بيلامي هنا تسير على القاعدة، في حين تسير قراءة دوسو على الشذوذ. ونحن نؤيد أن الكلمة هنا تعني صاحب، لا الذي. وبهذه القراءة يكون بيلامي قد حلّ لنا أمر «ذو» في النص. فهي تعني «صاحب»، وليست اسم موصول بمعنى «الذي» وهو ما يفتح الباب أمام فهم الجملة الملغزة: «الذي أسر التاج». وسوف نناقش لاحقا مسألة «أسر التاج» هذه.

لكن إلغاءه للتناقض بين المذكر والمؤنث عبر إزاحة كلمة «كله» من الطريق لم يكن مثمرا في ما يبدو لنا. فبقراءة «ولقبه» بدل «كله» بدا النص ضعيفا ومهلهلا. إذ كيف يعلن امرؤ القيس أنه ملك للعرب كلهم ثم يخص نفسه بعد ذلك بأسد ومذحج فقط؟ فتعبير «ذو أسد

ومذحــج»، حسب قراءة بيلامي، يعني: «صاحب أسد ومذحج». بذا فالرجل «صاحــب أسد ومذحج»، وليس «ملك العــرب». وإذا كان هــو فعلا صاحب أسد ومذحــج فقط، فإن علينا أن نعيــد تفسير تعبير «ملــك العرب» بشــكل مختلف، فهو لا يتواءم مــع أنه «صاحب أسد ومذحج». عليه، فقراءة بيلامي لم تحل لنا المعضلة. لقد أزاحت كلمة «كله»، لكنها لم تجد حلا لمشكلة «ملك العرب».

ويزيــد الأمــر تعقيدا حين نــرى أن السطر التالي يعدد لنــا القبائل التي حكمهــا فيذكر اسمي أسد ومذحج من جديد. ولــو كان أمرؤ القيس فعــلا صاحب (أسد ومذحج) لكان قد تجنب ذكر هاتين القبيلتين مرة ثانية. لكنه ذكرهما من جديد. وهذا ما يضع شكوكا كبيرة حول قراءة بيلامــي «أسد ومذحج» بدل «أسر التاج». بــذا يبدو أن علينا أن نبقى مــع «كله»، وأن نعتقد أن قراءة «ذو أسر التاج» أقرب للصحة من «ذو أسد ومذحج».

أمــا الاقتراح الذي قدمه (أبو الحب) والقائــل بأنه يجب قراءة الكلمة علــى أنها كلها، أي إضافة ألف في نهايتها، فغير مقبول قواعديا. ذلك أن النقشــ يكتــب «كله» لا «كلهــا» وبوضوح. وافتراضــ أن الألف سقطــت وتحولــت إلى فتحة اقتــراح غير ممكن. صحيــح أن الألف تسقط أحيانا في النقوش العربية القديمة كما في كلمة (نزار) في النقش التي كتبت (نزرو). غير أن سقوطها من كلمة «كله» غير جائز. فالألف هنا هي الفارق بين التذكير والتأنيث ولا يمكن إسقاطها في كلام عربي فصيح. فإسقاطها يؤدي إلى تعمية الجنس.

ملك العرب، أم ملك الغرب؟

انطلاقــا مــن هذا جميعه، لا بد مــن قراءة مختلفة تجانســ بين كلمتي «العــرب» و«كله»، وتزيــل التناقض القواعدي بينهمــا. والحقيقة أن لدينــا بهذا الصدد اقتراحا مهما من مانفريد كروب، مع أنه للأسف لم يمض مــع هذا الاقتراح حين قدم ترجمته للنقشــ. وهو ما يعني أنه لا

يملــك الجرأة بعد، أو الثقة، للسير قدما بهذا الاقتراح. واقتراحه يقول أن المشكلــة تكمن في كلمة «العرب». فهــذه الكلمة هي التي تجب إعادة قراءتها. وهو يقترح أن علينا أن نقرأ الكلمة بالغين لا بالعين، أي علــى أنها: الغرب: «من المحتمــل أنه [امرأ القيس] ليس ملكا للعرب كلهم، بــل ملك (للغرب) كلــه، أي (المنطقة التي تقــع غربي الهلال الخصيب)» (Kropp M. 2006، page101)

ويجــب أن نشير هنا إلى أن الأبجدية النبطية تتكون من 22 صوتا. أما العربية فتتكون من 28 صوتا. بذا فهناك ستة أصوات عربية لا يوجد لها حروف عنــد الكتابة بالنبطية. لذا فعند كتابة نص عربي بالخط النبطي تعطــى بعض الحــروف النبطية مهمة تمثيــل صوتين عربييــن أحيانا. فحرف العين النبطي مثلا يمثل العين والغين معا، وهكذا. عليه، يمكن لنا قراءة العين النبطية على أنها غين عربية في بعض الأحيان. وعلى هذا الأساس اقترح كروب قراءة «ملك الغرب كله».

وحيــن نكون مع (الغرب) تتوافق الجملة مع ذاتها، أي يتوافق المذكر مــع المذكــر. فالغرب مذكــر، والضمير في «كله» مذكــر أيضا. لكن اقتراح كروب، بشكله الحالي غامض، ولا يحل المشكلة نهائيا. فأين هي المنطقة التي إلى الغرب من الهلال الخصيب، والتي حكمها امرؤ القيــس؟ وماذا يعنــي «غربي الهلال الخصيب كلــه»؟ أيعني الساحل، أم مــاذا؟ ولمــاذا لا تكــون المنطقة غربــي الجزيرة العربيــة؟ فالشام، حيــث مملكة الرجل، يقع غربي جزيــرة العرب. وهناك حديث نبوي غامض فيه حديث عن (الغرب) فسر على أنه يعني الشام: «لا يزالُ أهل الغَرْب ظاهريــن علــى الحق. قيــل: أرادَ بهِم أهل الشَّــام لأنّهم غَرْب الحجاز. وقيل: أراد بالغَرْب الحــدّةَ والشَّوكَة، يريد أهل الجهاد (ابن الأثيــر المحدث، النهاية فــي غَرِيب الحديث). وهكــذا، فلدينا تعبير غامض هو «أهل الغرب»، وقد فهمه بعض اللغويين على أنه يعني «أهل الشــام». لكن الحديث عــن الشام كلها يضيعنا، فهــو يعطي الانطباع بملــك امبراطوري، يحكم العــرب في غربي بلاد الشــام كلها. وهو

اقتـراح من الصعب القبول بـه. فمنذ أن أطيح بتدمـر وبصرى، بدت السياسـة الرومانيـة والبيزنطية عموما أقرب إلـى الاستناد إلى (ملوك) صغـار، أي حكام وشيوخ قبائل يسيطرون على مساحات غير واسعة، لا تمكنهم من أن يفكروا بالاستقلال.

بناء عليه، سنأخذ اقتراح كـروب ونعدله قليلا. فالكلمة هي «الغرب» فعلا، لكنها لا تعني نقيض الشرق ومقابله، بل تعني: الحدّ، أي طرف الشيء، ونهايته، وحرفه. فالحد في العربية هو الغرب والغراب، أيا كان هذا الحد أو الطرف، سواء كان طرف السكين أو غيره: «الغرب: حدّ الشـيء» (ابن فارس، مقاييس الغة). يضيف ابـن فارس: «وغَرْب كل شيء: حـدّه، وكذلك غراب كل شـيء» (ابن دريد، جمهـرة اللغة). يزيـد ابن فارس: «فالغَرْب: حَدُّ الشّيء» (ابـن فارس، مقاييس اللغة). ويقـول اللسـان: «وغُراب كلّ شـيء: حدّه» (لسان العـرب). ولهذا يسمـى طرفا وركي الحصان الغرابيـن: «وغرابا الفرس والبعير: حَرْفا الوَرِكيـن المشرفان علـى الخاصرتيـن» (ابن دريد، جمهـرة اللغة). يضيـف الجوهـري: «وغُرابا الفرس والبعيـر: حـدُّ الوِركيـن، وهما حرفاهمـا: الأيسـر والأيمـن، اللذان فـوق الذنب حيث يلتقـي رأسا الورك» (الصحاح، الجوهري).

بناء على هــذا، فامرؤ القيس يمكن أن يكــون (ملك الغرب كله)، أي ملـك الحـد أو الحدود، بمعنى ملـك المنطقة الحدوديـة. وإذا صح هـذا، وهـو صحيح في ما نـرى، فنحن مع تعبير عربـي معادل لكلمة الليمسـ limes فـي مصطلـح limes arabicas الرومانـي الذي يعني بالضبط: (الحدّ العربي) أي (الغرب العربي). وهو مصطلح كان يطلـق على حزام رومانـي بيزنطي طويل هدفه تأميـن حماية مناطقهم من هجمات القبائـل العربية داخل الجزيرة العربية. ويمتد هذا الحزام الواقـي من شمال العقبة حتـى شمالي سوريا. وقـد استند هذا الحزام إلـى عدد من الحصون العسكرية على أطراف البوادي، وإلى خدمات بعض القبائـل العربيـة التي كانت تعطـي امتيـازات ومساعدات كي

تشــارك فــي تأمين الحدود. بنــاء عليه، فامرؤ القيــس كان في ما يبدو ملــكا لمنطقة حدودية في سوريا، تشمــل النّمارة وما حولها، بموافقة الروم البيزنطييــن. وهي في ما نعتقد تشمل القبائل التي يعددها النقش فــي السطرين الثانــي والثالث. فمــن الصعب أن يكــون ملك «الحد العربي» كله، الذي هو شريط طويل من شمال سوريا إلى الأردن، يبلغ طوله 1500 كلم. وهذا يعني أنه ملك المنطقة الحدودية كلها في جزء محدد من هذا الحزام في سوريا.

وبهذه القــراءة تتوافق كلمتا «الغرب» و«كله» فكلاهما كلمة مذكرة. أكثــر مــن ذلك، فــإن النص يتوافق مــع الحقيقــة السياسيــة التاريخية المعروفــة، حقيقة وجود حــزام دفاعي بيزنطي في باديــة الشام سمي بالحد العربي، وأوكلت أموره إلى فرق عسكرية وإلى قبائل عربية تقيم على حدود الشام مع الجزيــرة العربية، على رأسها شيوخ أعطوا صفة «ملــك» المحببــة جدا إلى العــرب. كما أنه يتوافق مــع وقوع النّمارة ذاتها على طرف بادية الشام تقريبا.

ملك الحيرة

وبعــد أن حللنــا أمر «ملك العرب كلــه»، وبينا أن الأمــر يتعلق بملك منطقــة حدودية بيــن الشام والجزيــرة العربية، فإن علينــا أن نعود إلى امــرئ القيس كي نستوضــح أي ملك هو. فقد ســورع، وبعد شهور قليلــة من اكتشــاف النقش، إلى اعتبار أن هذا الملــك هو امرؤ القيس بــن عمرو ملــك الحيرة. لكن هــذا خلق معضلة فوريــة: فكيف يدفن ملــك مقره الرسمي في الحيرة جنوبي الوســط العراقي، حيث يسيطر الفرس، في أرض الشام حيــث يسيطر البيزنطيون؟ إن هذا لأمر يبعث على عظيم الشك. وقد أقر دوسو نفسه بهذا الشك، لكنه وضعه تحت اسم (العجب)، غير أنه سرعان ما أزاحه:

«إن مركز ملك جميع العرب، الــذي يستمد سلطانه من ملوك الفرس ولكنــه في نفس الوقت حليف لروما، لمما يبعــث على العجب وفقا

لفكرتنا البسيطة عن العلاقات بين الشعوب؛ ولكنه يتفق تماما مع تلك السياسة الخارجية المتأرجحة للشرقيين ومع المركز الخاص للعرب الرحل في بادية الشام. وعرب الحطرة [مدينة الحضر الشهيرة قرب الموصل وليس الحطرة] وهو مكان متقدم ما بين دجلة والفرات، قد قاموا من قبل بنفس الدور: كانوا يقعون بين الرومان والفرطيين [الفرثيين]، ولكنهم عرفوا كيف يحافظون على استقلالهم» (دوسو، 1959، ص 36–37).

وهكذا، فهناك (أمر يدعو للعجب)، يتمثل في أن ملكا عربيا يتبع الفرس والروم في الوقت عينه، ويكون قبره في الشام ومقر ملكه في جنوب العراق الأوسط. لكن هذا العجب يزول حين يتذكر دوسو الطبيعة (المتأرجحة للشرقيين)! فهذه الطبيعة المتأرجحة تستطيع أن تفسر كل شيء. يعني: تستطيع أن تجعل رجلي الميت في العراق ورأسه في الشام! وعبر الطبيعة المتأرجحة للشرقيين انتقل دوسو من العجب إلى التأكيد:

«ومنذ البدء كان الأستاذ كليرمون جانو– الذي ندين له بمعرفة طبيعة هذا النص– يميل إلى الاعتقاد بأن هذا النص المكتوب على القبر يرجع إلى ملك من ملوك الحيرة. والأستاذ العالم الذي ينتمي إلى الكوليج دي فرانس، قد قدم لنا أخيرا أدلة يبدو عليها أنها قاطعة» (دوسو، 1959، ص 33). وبذا تحول العجب إلى تأكيد وقطع.

وقد أمضى عدد كبير من الباحثين وقتهم في إثبات أنه يمكن جمع الفرس والروم في سلة واحدة. فعرفان شهيد، الباحث الشهير، مثلا، مدفوعا بمشاعره القومية في ما يبدو، يؤكد مثل دوسو على أن: «امرأ القيس [في النقش] ليس سوى ملك الحيرة اللخمي الذي ذكره هشام الكلبي. التأكيد الإبيغرافي– الأدبي لهذا كامل حد أنه لا يوجد أي مجال للشك في ما يخص هوية (ملك العرب كلها)» (Shahîd، I، 1984، page 34). لكنه، مع ذلك، يعترف أن ثمة مشكلة في هذا: «فلماذا يدفن ملك الحيرة الذي له علاقات خاصة مع الفرس،

فــي النّمارة البعيــدة، التي هــي، والأكثر من ذلك، منطقــة رومانية؟» .(Shahîd I، 1984، page 34)

والحــل لهذه المعضلة عنده هو افتراضـ أن الرجل اختصم مع الفرس فرحــل إلى الروم وعقد تحالفــا معهم. وهو يدعم هــذا الفرض بخبر مــن هشام الكلبي يقول فيه أن امــرأ القيس بن عمرو ملك الحيرة كان أول من اعتنق المسيحية من الحكام اللخميين. بالتالي، فقد حل الأمر كله: اعتنق الرجل المسيحية ديانة أعداء الفرس، فأغضب الفرس عليه، فاضطــر إلى اللجوء إلى الروم في بلاد الشام. بالطبع، لم يقل لنا هشام الكلبي أن امرأ القيس ذهب إلى بلاد الشام.

والحال، أنه كان من المفترض بنقش على قبر ملك عربي شهير وكبير تحــول مــن الوثنية إلى النصرانية أن يشير إلى هــذا الأمر، بل وأن يعلنه صراحــة. لكن نقشــ النّمارة، وباعتــراف شهيد نفسه، ليســ فيه أي إشــارة أو رمز يدل على مسيحية امرئ القيس. لقد تجاهل النقش هذه الحادثة الخطيرة المفترضة. بالتالي، فقد كان شهيد مضطرا إلى القيام بمحاولة متعبة، وغير ناجحة، لتبرير غياب أي إشارة لمسيحية الرجل فــي النقش. ويمكن للمرء أن يقــول أن النقش يعطي في الواقع انطباعا شديدا جدا بأننا مع ضريح لملك وثني لا علاقة له بالمسيحية. فالنقش مشغــول بالدنيــا لا بالعالم الآخــر. فليس هناك من صلــوات ولا ذكر لإله، أو لمسيح، أو غير ذلك. فقط في السطر الأخير يمكن الإحساس بوجود (قــدر) وثني غامض يحلــق فوق الرؤوس. فــوق هذا، فمبنى الضريح لا يشمل أي رموز مسيحية.

لكن الأغرب أن الروم لم يذكروا حادثة تحول امرئ القيس. وقد كان المنطقي أن يهللوا الحادثة تحول ملك عربي كبير إلى ديانتهم، ولجوئه إلــى مناطق سيطرتهم. فهذا حدث غير عادي فــي سياق صراعهم مع الفرســ. لكنهم لم يذكــروا الحدث أبدا. لذا تركنا مــع الروايات شبه الأسطوريــة لهشــام الكلبي بخصوصــ تحوله الديني، ومــع تبريرات شهيد لغياب الحديث عن الأمر في المصادر البيزنطية.

ثــم لنفترض أن الأمر كذلك بالفعـل، فكيف يمكن لملك وضع نفسه تحــت حماية الــروم أن يجاهر في نقشٍ على قبره أنــه صنيعة للفرس والــروم معــا، بناء على ترجمــة دوسو؟ وكيف يمكن للــروم أن يقبلوا بمثل هذا من لاجئ تحت وصايتهم؟ هذا أمر غير معقول، وغير مقنع.

وفي كل حال، فإن التحسينات على قراءة النص أخذت تستبعد وجود اســم الفرس في النص أصلا. وســوف نكتشف أيضا أن الروم أنفسهم لم يذكروا في النقش بشكل مباشر كذلك.

ذو أسر التاج

أمــا الدليل الملموس، والأكثر قوة، لدى من آمن بــأن امرأ القيس في النقش هو ملك الحيرة ذاته فقد تمثل بكلمة (التاج) في التعبير الغامض (ذو أســر التاج)، الــذي فهم على أنه يعني: حاز علــى التاج، أو الذي كلل بالتاج:

«ويلاحظ الأستــاذ كليرمون جانو أن ظهور كلمة (التاج)، وهي كلمة معروفة تمام المعرفة في البقاع الإيرانية، ذو مغزى بعيد: فهي تدل على مظهر من مظاهر السلطان العربي الذي تأسس تحت الرعاية الفارسية. وقد أظهر الأستاذ روثشتين، في بحثه عن أسرة اللخميين، أن اصطلاح (ذا التــاج) قد خصص تقريبا لملوك الحيرة. ولــم يطلق إلا نادرا على الغسانيين. والواقع أن هؤلاء لم يتسلموا التاج إلا عام 580 كما يبرهن حنــا الأفسوســي... وإذا كانت كلمــة التاج فارسيــة، فالوضع يكون فارسيا أيضا. ويقول الأستاذ روثشتين: «إن العرب قد عرفوا التاج عند الفرس فحسب، وربمــا كان ذلك عن طريــق اللخميين». ويجب أن نخلص من هذا بأن ملــكا عربيا ذكر عام 328 ميلاديــة قد كلل رأسه بالتــاج، لا يمكن أن يكــون قد تسلم تاجه إلا مــن الفرس. وعلى هذا فامرؤ القيس بن عمرو قد استمد سلطانه من ملك الفرس؛ ويجب علينا أن نجــزم بأنه ملك الحيرة الذي يسمى بهــذا الاسم. ونخرج من هذا إلــى أن ذكر الفرس في نصنا يصبــح أمرا طبيعيا» (دوسو، 1959، ص

35). إذن، فإنه لأمر طبيعي أن يكون امرؤ القيس في النقش هو ملك الحيرة ما دام هناك تاج في النص!

أما الدكتور جواد علي المؤمن بأن امرأ القيس في النقش هو ملك الحيرة فينقل رأي دوسو وغيره بخصوص أمر التاج بلا قطرة شك أو تحفظ. يقول: وقد استنتج «المستشرقون من عبارة (ذو أسر التاج) (الذي نال التاج) على أن صاحب هذا التاج هو من الملوك الذين كان لهم اتصال بالفرس، وان المقصود به ملك من ملوك الحيرة، لوجود صلة لهم بالامبراطورية الفارسية. ودعواهم في ذلك أن هذه الجملة، وكلمة «تج» «تاج» هما من الاصطلاحات المستعملة عند الفرس وعند من خالطهم من الملوك، فلا بد أن يكون حاملها من الملوك المحالفين لهم. وكلمة (تاج) من الألفاظ المعربة عن الفارسية، من أصل «تاك». ولما كان هذا ملكاً عربياً، فهو اذن امرؤ القيس ملك الحيرة» (جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام).

غير أن عرفان شهيد أخذ فكرة «التاج» إلى مدى أبعد. فبما أن السطر الثاني يقول حسب القراءة السائدة: «ملك الأسديين ونزار، وملوكهم». بالتالي، فامرؤ القيس إذن (ملك الملوك)، أي (شاهنشاه) مثله مثل ملوك الفرس!

أسرتاج

وهكذا تم صنع طبخة كبرى من تعبير، أو مصطلح، غامض ما زلنا غير قادرين على فهم معناه، ولا على تأكيد وجود كلمة «التاج» فيه أصلا. والحال أننا اقترحنا أن (ذو) في الجملة لا تعني الذي. كما سنكتشف لاحقا أن كلمة «ملوكهم» لا تعني زعماءهم وقادتهم. وفوق ذلك، وهو الأهم، فإن ثمة في اللغة النبطية مصطلحا هو (أسرتاج). وهو مصطلح مشابه للكلمة في النقش. بل هو مشابه جدا حين نتذكر أن بيلامي قرأ «أسد تاج»، أي أنه لم ير «ال» التعريف في الكلمة. وقد فسر المصطلح النبطي على أنه يعني وظيفة محددة، تساوي حاكم

مدينة أو منطقة. وقــد عثر على هذا التعبير، مثلا، في عشرة من نقوش مدينة الحجر النبطية:

«وورد فــي هذه المجموعــة اسمان لوظيفتين أداريتيــن؛ الأولى: أ س ر ت ا ج (الوالــي، الحاكم)، التي جاءت في عشــرة نصوص... وبما أنــه يصعب قبــول أن هؤلاء العشرة قــد تولوا منصــب الوالي لمدينة/ منطقــة الحجْر، فــلا بد أن بعض هــؤلاء الولاة قد درجــوا على زيارة الحجــر للاَلتقاء بالملك في أثنــاء زيارته للحجر. إذ لم يثبت حتى الآن أن الحجــر اتخذت في فترة مــن الفترات عاصمة للأنباط. أو أن بعض هــؤلاء الحكام هم أصلا مــن مدينة الحجر، حيث يعتقــد أن الحارثة الرابع كان أحد أبناء القبائل النبطية الجنوبية... لذا عين، بحكم الولاء، عددا من أبناء القبائل الجنوبية في هذا المنصب الرفيع ليديروا عددا من المناطق والمدن التابعة للملكة النبطية» (الذييب، 1998، ص 6).

إذن فــ (أسرتاج) مصطلح إداري نبطي، ليس واضحا لنا بالضبط معناه الدقيق. لكنه اسم لمنصب محدد كبير في الدولة. وهناك من يعتقد أن هذه الكلمة ذات أصل يوناني، وأنها تعني في الأصل جنرالا عسكريا. فقد جاء في أحد النقوس: دنه مشكا/ دي أخذ غنم/ أسرتاج/ دمسفس. وترجمتــه حسب الدكتور الذييب: «هــذه الساحة/ التي أخذ (اقتطع) غانــم/ الحاكم (الوالي)، بن/ كمسفس» (الذييب، 1998، ص 34). يضيــف الذييب معلقا على السطر الثالث في النقش: «الكلمة الوحيدة فــي هــذا السطر بخلاف اســم البنوة (بــر) هي كلمة أ ســ ر ت ا ج، وهــي كلمة إغريقيــة (لمعرفة الصيغــة الإغريقية أنظــر ،Catineau 1978،p.114) يظهــر عليهــا التأثير النبطي، حيــث ألحقت بها أداة التعريف النبطية، وتعني [جنرال]. ولكن المصطلح الصحيح المقصود فــي النبطية غير معروف، فبالإضافة إلى أنها تعني جنرال، فإنها تحمل لــدى بطالمــة مصر المعنــى العسكــري والمدنــي والإداري. أما في الإنجيــل فتحمل معنــى الإداري الرئيس praetor. أمــا لدى أهالي القدس القديمــة فقد كانت تعني (القائد، الكابتــن)... ولهذا فاللفظة

النبطيـة ربما تعني جنرال، حاكم، إداري وقائد حسب موقع الشخص الوظيفـي. بل [إنهـا] أحيانا ربما تحمل معنى نائب الحاكم أو الوالي. وهذا ما حـدا بعاصم البرغوثي (قسم الآثـار والمتاحف) إلى تصور، غير مستبعد، بأن الأنباط كان لديهم حاكمان؛ الأول عسكري والآخر مدني» (الذييب، 1998، ص 36–37).

إذن فقـد تكون الكلمة التـي في نقش امرئ القيس هـي ذاتها الكلمة النبطيـة، ذات الأصل اليوناني، لكن مع تحريف بسيط أدى إلى إضافة أل التعريـف العربية إليها، كنوع من تقريبها وتعريبها، فصرنا مع «أسر التـاج» بدل «أسرتاج». هذا إذا كانت الكلمة مع أل التعريف «التاج» فعـلا، ولـم يجر توهم وجودهـا. فبيلامي لـم يعثر علـى أل التعريف هـذه في النقش. والحق أن من يعتقـد أن امرأ القيس هو ملك الحيرة، فسوف يكون متشوقا جدا للحصول على كلمة «التاج». بأل التعريف كي يثبت التأثير الفارسي.

بناء عليه، فـ «أسرتاج» ترسلنا إلى اليونان والأنباط لا إلى الفرس. عليه فمـن المحتمل جدا أن الكلمة في النقش تعني رتبة إدارية ممنوحة من قبـل الروم، وهـي لا بد أن تكون شيئا يعني: الحاكـم أو الرئيس. بذا، فربمـا كان من الأفضل لنـا أن نترجم جملة (ذو أسـر التاج) على أنها تعنـي: (ذو الولايـة) أو (ذو الرئاسة). وهذا يعنـي أن (ذو) هنا ليست اسمـا موصولا، بمعنى الذي، كما فهـم، بل بمعني: صاحب كما قلنا من قبل: «قال الليث: ذو اسم ناقص وتفسيره صاحب ذلك، كقولك: فلان ذو مال أي: صاحـب مال» (لسان العرب). أي أننا مع صاحب الولاية، لا مـع (الذي حاز التاج). بناء عليـه، فالملك العربي موظف عسكري عند الروم، وليس عند الفرس.

إذن، فالأسـس التي بني عليها فرض أن امرأ القيس في النقش هو ملك الحيـرة تتصدع بقوة. وإذا أضفنا إلى هـذا أن الاسمين (امرؤ القيس) و (عمـرو) شائعان إلى حد لا يصـدق عند القبائل العربيـة، فإنه ليس حدثا خاصا أن نجد ملكا باسم (امرئ القيس) في نقش ما من النقوش

العربية. وهذا يعني أن علينا أن نتريث قبل أن نشير إلى الحيرة حين نعثر على مثل هذا الاسم.

السطران الثاني والثالث

هذان السطران يجب أن يقرءا معا، وأن يقرءا هكذا، في اعتقادنا:

2. وملك الأسديين ونزارو، **وملوكهم، وهُرب مذحجوعكدي، وجا**

3. بزجه (بزجي) في رتج نجران، مدينة شمرو ملك معدو. **وبزل بيبة**

وفيهما يعدد كاتب النقش القبائل التي كانت تحت سيطرة امرئ القيس بن عمرو. ومن الواضح، بالنسبة لنا، أن الكلمة الثانية هي (الأسديين)، أي جماعات بني أسد وقبائلها. وقد قرأ بعضهم (الأسديْن) بدل الأسديين، على أساس أنه ربما يشير إلى فرعين من قبيلة بني أسد. في حين قرأ بعضهم (الأزديْن)، أي فرعي الأزد الشهيرين في ما يبدو: أزد شنوءة وأزد عمان. لكن الكلمة بالسين لا بالزاي. أما الكلمة الثالثة فهي اسم قبائل (نزار) باتفاق، مع إضافة الواو النبطية التي لم تكن الكتابة العربية قد تخلصت منه بعد.

أما كلمة (ملوكهم) فالاحتمال الأكبر أنها لا تعني هنا زعماءهم وقادتهم، بل تعني: مصادر مياههم وآبارهم، أو أملاكهم عامة، بما فيها مصادر المياه. وفي لسان العرب: «مياهنا: مُلُوكنا. ومات فلانٌ عن مُلُوك كثيرة... وقال ثعلب: يقال: ليس لهم مِلْك ولا مَلْكٌ ولا مُلْكٌ إذا لم يكن لهم ماء» (لسان العرب). يضيف الزبيدي: «قال ثعلب: يقال: ليس لهم مِلْك، مُثَلَّثًا: إذا لم يكن لهم ماء والجمع مُلُوكٌ» (الزبيدي، تاج العروس). يزيد اللسان: «وقال ابن الأعرابي: ما له ملْكٌ، بالتّثْليث ويُحرّك: يريد بئرًا وماء، أي ما له ماء» (لسان العرب). إذن، فقد حكم امروؤ القيس الأسديين ونزارا ومياههم، أو أملاكهم بما فيها مصادر المياه. وما لم نفهم هذا فسوف

يعمى علينا النص، ونظن أننا مع ملك للملوك، كما عند الفرس. ونعتقد أن النص يواصل، بعد ذلك، تعداد القبائل التي تحت سيطرة امرئ القيس. لكن عدم فهم كلمة (هرب) ضلل جميع من حاولوا قراءة هذه المنطقة من النقش، وقطع حبل السرد. فقد اعتقدوا أنها تعني (طارد). أي ان امرأ القيس هنا يقوم بعمل حربي، يطارد من خلاله قبيلة مذحج إلى رتج، أو حبج، نجران. والحق أنه ما من مطاردة ولا هروب هنا. فكلمة (هرب) هنا اسم قبيلة يقرأ هكذا: (هَرّاب). ولدينا في الحقيقة أكثر من بطن قبلي بهذا الاسم. مثلا: «الهرابي: بفتح الهاء والراء المشددة بعدهما الألف وفي آخرها الباء الموحدة: هذه النسبة إلى هراب وهو بطن من سامة بن لؤي، وهو هَرّاب بن صبهان بن بطنة بن سامة بن عوف من بني سامة بن لؤي» (السمعاني، الأنساب). وهناك هراب من ذهل أيضا: «وولد ذهل بن الحارث: هَرّاب بن ذهل» (البلاذري، أنساب الأشراف). ومن بني هناءة هناك هَرّاب كذلك: (فولد خنزيرُ بن أسلم: عائداً، وعازباً، وحاشياً. منهم: عُقبة بن سلم بن نافع بن هلال بن صهبان بن هرَّاب بن عائد بن خنزيرٍ» (ابن الكلبي، نسب معد واليمن الكبير).

وهكذا، فهناك بطون قبلية كثيرة باسم (هراب). وهذا يعني أنه اسم قبلي شائع. بناء عليه، فإن الواو التي بعد ملوكهم هي واو العطف وليست جزءا من كلمة ملوكهم. فهي تعطف اسم قبيلة على اسم قبيلة أخرى. بذا يجب أن نقرأ الجملة بعدها هكذا: (وهراب مذحجو) أي (هراب قبيلة مذحج). وهذا يعني أنه كان هناك بطن من قبيلة مذحج يدعى الهراب (هراب مذحج).

أما كلمة (عكدي) فكلمة غامضة جدا. وقد تكررت هذه الكلمة– اللغز مرتين؛ مرة هنا، ومرة ثانية في السطر الأخير الذي يعلن تاريخ وفاة امرئِ القيس. وقد فهم بعضهم الكلمة هنا على أنها تعني (بقوة): «لي به عُكَدَة: أي قوة. وهو مَعْكدي» (الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة). أي على افترض أن امرَأ القيس يطارد قبيلة مذحج بقوة.

وبمـا أننا أبطلنا فكرة وجود مطـاردة وهروب، فإن الغالب أن الكلمة جزء مـن اسم فرع لقبيلة مذحـج. فمذحج هنا منسوبـة إلى عكدي. أي أننـا مـع بطن من مذحج يدعـى (مذحج عكدي) مثـل قولنا (أزد شنوءة) في مقابل (أزد عمـان). إذن فالجملة هكذا: (وهراب مذحج عكدي)، بغض النظر عما إذا كان عكدي اسم منطقة أو اسم جد قبلي. وقـد وردت أسمـاء محددة مـن جذر عكد مثل «مقاتـل بن معكود» (الذهبي، تاريخ الإسلام).

أمـا الكلمة الأخيـرة في السطر فهي فـي ما نعتقد جزء مـن اسم قبيلة يكتمل في السطر التالي: (جابزجه) حسب قراءة دوسو لها. أما القراءة السائـده لها الآن فهي باليـاء، وعلى اعتبار أننا مـع جملة كاملة لا مع اسـم: (وجاء يزجّـه)، أي وجاء يدفعه. ثم تكتمـل الجملة بالكلمات اللاحقـة: (وجاء يزجه في رتج نجـران)، أي ودفعـه، او طارده، إلى أبـواب نجـران. والقراءة بهذا الشكل نابعة مـن افتراض الهجوم على مذحج، الذين هربوا من أمامـه، فتبعهم امرؤ القيس يزجهم زجا حتى أبـواب نجران. وبمـا أننا أبطلنا وجـود مطارة وهاربيـن، فالمنطقي أن نفترض أن (جابزجـه– جابزجي) اسم قبيلة محـددة، وأن حرف الـواو في أولها هو حرف عطـف، يعطف اسم هـذه القبيلة على التي سبقتهـا. وهذا الاسم الذي يبدو لنا مركبا صعـب التفسير. لكن ربما ساعد في تفسيره أن لدينا الاسم (بُزج) في العربية. فقد أرسل الرسول الأصيـد أبا سلمة: «على فرس له إلى غدير بزُج بناحية ضرية» (ياقوت الحمـوي، معجم البلدان). وأغلب الظـن أن (بزج) في الحديث اسم قبيلـة. فقد جرت العادة على تسمية الغـدران والعيون والمناطق باسم القبائـل التي تملكها. أي أن هناك غديرا باسم هذه القبيلة: (غدير قبيلة بـزج). وهذا ما يقوي احتمال أننا مع (جابزجه) بالباء لا بالياء. أي أننا مـع اسم مركب الجزء الثاني منه (بزجه). ويبدو أن هذه القبيلة تسكن حـول نجران. بالطبع، يمكن أن يكون الاسم (جابزجة) اسما لمنطقة لا اسما لقبيلة.

وقــد فهم أن «رتج نجــران» تعني أبواب نجــران، أو الأرض الخصبة فــي نجران: «الخصْبُ إذا عمَّ الأرض فلم يغادر منها شيئاً، فقد أَرْتَجَ» (لســان العرب). لكنها قــد تعني الحصن: (وفــي الحديث ذكر راتج بكســر التــاء، وهو أُطُــمٌ من آطــام المدينة كثيــر الذِّكر فــي الحديث والمغــازي» (لسان العرب). كما أنها قد تعني الشِّعب: «الرِّتاجَةُ: كلُّ شعْبٍ ضَيِّقٍ كأنه أُغلــق من ضيقه» (لسان العرب). وقد تعني الأرض المَغمَــورةً بالمــاء: «قــال الغتريفي: أَرَتَــجَ البحر، إذا كثر مــاؤه فغمر كل شــيء» (الأزهري، تهذيــب اللغة). وفي هذه الحالــة ربما نكون مع مستنقعات. كمــا أنها قد تعني: الصخــور: «والرَّتَائِجُ: الصُّخُوْرُ، الواحِــدَةُ رِتَاجَةٌ» (الصاحب بن عبــاد، المحيط في اللغة). يضيف ابن فارس: «والرَّتائج: الصخور المتراصفة» (ابن فارس، مقاييس اللغة). ولعلنا أميل إلى هذا المعنى من بين كل المعاني المطروحة. وبذا تصبح الجملــة هكذا: (وقبيلــة جابزجه في المنطقة الصخريــة من نجران». لكــن من الممكن أن تكون الجملــة هكذا: (وقبيلة جابزجه في شعب نجران).

بالتالي، فالفقــرة كلها تقرأ هكذا: «وملك الأسديين، ونزار، ومياههم أملاكهم [أو أملاكهم ومياههم] و هُراب مذحج– عكدي، و جابزجه (أو بزجــي) في [منطقة] رتج نجران [التي هي] مدينة شِمْر، الذي هو ملك معدّ. وهنا ينتهي تعداد القبائل.

نجران

وقبــل أن نعرضــ لأمر الكلمتين الأخيرتين في السطــر الثالث، نود أن نناقش هنا أمر (نجران) في النقش. ومن الواضح أن أمر نجران كان قد حســم منذ أن اعتقد أن امرأ القيس في النقش هو ملك الحيرة. فما دام ملكا للحيرة ولكل العرب، فعلى ملعبه أن يكون داخل الجزيرة العربية لا فــي الشام أساسا. بالتالــي، يصبح من الطبيعــي أن نفكر في نجران اليمن الشهيرة حين نصادف كلمة «نجرن» في النص. لكن بمجرد أن

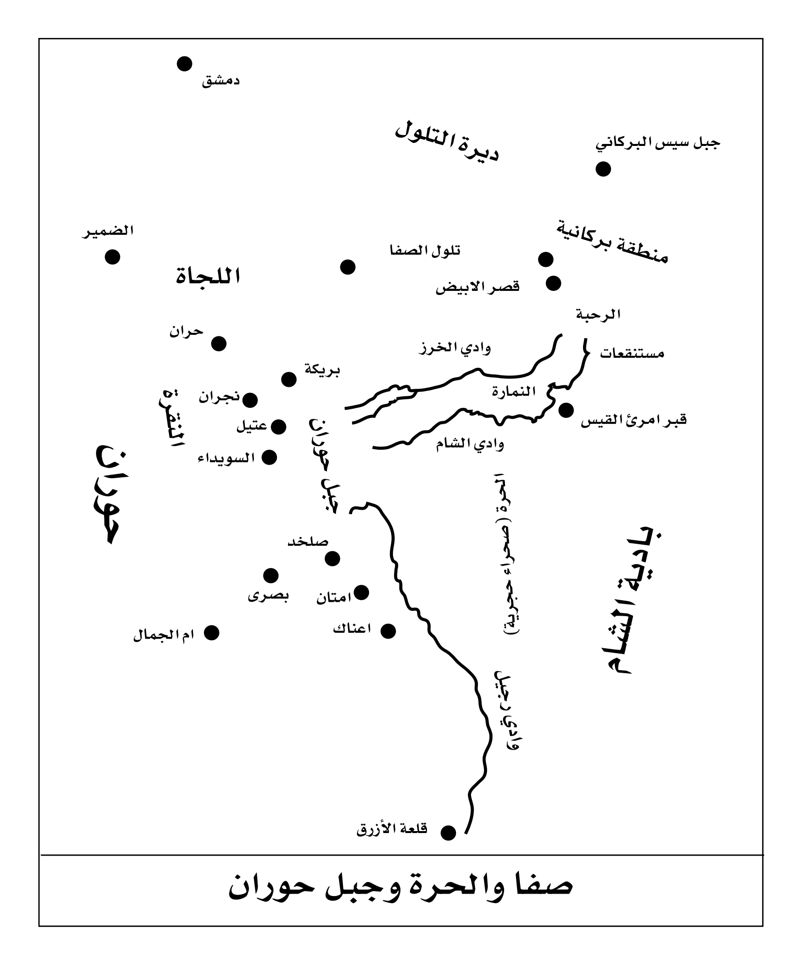
نكتشف أن الرجل لم يكن ملكا لكل العرب، وأنه بلا علاقة بالحيرة، فإن ملعبه سيضيق جدا، ونصير ملزمين على الالتفات إلى (نجران اللجاة)، التي لا تبعد مسافة هائلة عن النّمارة مقر امرئ القيس.

ونجران اللجاة الآن قرية صغيرة تبعد عن مدينة السويداء في جبل العرب حوالي 20 كم. لكن هذه القرية كانت ذات يوم مدينة مهمة. تشهد على ذلك الخرائب الأثرية قربها. وهو ما تؤكده المصادر العربية الكلاسيكية التي عرفت المدينة جيدا، وعرفت أهميتها:

«ونجران أيضاً موضع بحوران من نواحي دمشق. وهي بيعة عظيمة عامرة حسنة، مبنية على العمد الرخام، منمقة بالفسيفساء. وهو موضع مبارك ينذر له المسلمون والنصارى. ولنذور هذا الموضع قوم يدورون في البلدان ينادون: من نذر نذر نجران المبارك، وهم ركاب الخيل وللسلطان عليهم قطيعة وافرة يؤدونها إليه في كل عام وقيل هي قرية أصحاب الأخدود باليمن» (ياقوت، معجم البلدان). وهكذا، فهي مثل نجران اليمن على علاقة بقصة أصحاب الأخدود. كما أن ديرها، دير نجران، شهير جدا ويذكر عند ذكر دير نجران اليمنية، المسمى كعبة نجران: «وثانيهما: بأرض دمشق، من نواحي حوران، قرب بصرى، وهو قريب من دير الراهب بحيرا، الذي ورد إليها النبي صلى الله عليه وسلم، وعرفه الراهب بحيرا في القصة المعروفة في أخبار معجزاته عليه الصلاة والسلام» (ياقوت الحموي، معجم البلدان).

وكل هذا كان معروفا للباحثين الذين عرضوا لنقش النّمارة جيدا، لكنهم تجاهلوا نجران اللجاة لأنهم يبحثون عن ملك الحيرة لا ملك النّمارة. فنجران اللجاة لا تصلح أن يذكرها نص لملك الحيرة الأسطوري.

ويمكن للخارطة أن توضح المسافة بين قبر امرئ القيس في النّمارة ونجران.



خارطة الصفا والحرة وحوران. ويظهر موقع ضريح امرئ القيس وموضع نجران مطوقين بدائرة. والصورة من (رنيه دوسو: تاريخ العرب في سوريا قبل الإسلام).

الكلمتان الأخيرتان في السطر الثالث

ظلت هاتان الكلمات لغزا. أو قل إنهما شكّلا أول لغز كبير يشمل الفقرة التي تبدأ من عندهما كلها. وخذ ما يقوله بيلامي مثلا عن هذه الفقرة: «هذه الجملة «ونبل بنيه الشعوب» مأخوذة مع ما يتبعها «ووكلهم» ثم

«فرسو لروم»)، أثبتت أنها الفقرة الأشد صعوبة في النقش كله، كما أنها الأشد أهمية أيضا، ولهذا فقد حظيت، وهو أمر مفهوم، بأكبر قدر من النقاش. وتنبع الصعوبة من حقيقة أن الكلمتين المفهومتين الوحيدتين في الفقرة هما «والشعوب» أي (القبائل) و «لروم» أي (للروم))».
(Bellamy A 1985. Pafe 40)

والحقيقة أنه حتى الكلمتين اللتين استثناهما بيلامي وهما (الشعوب) و (لروم) غير واضحتين أيضا. بل أن جذر الغموض الذي لفّع الفقرة كلها ينبع من غموض كلمة «الشعوب» على وجه الخصوص. فقد فهمت هذه الكلمة خطأ من قبل الجميع، الجميع وليس الغالبية، مما أدى إلى تعمية هذا الجزء من النقش، بل تعمية النقش كله. لقد (قرئت) حروف الكلمة بشكل صحيح، لكنها (فهمت) خطأ. ولو أنها فهمت بشكل سليم لما استغلقت الفقرة، ولعثرنا على مفتاحها بسهولة. وسوف نعرض لهذه الكلمة لاحقا بعد أن نعرض لجملة دوسو (وبيّن بنيه).

وقد ظلت كل المقترحات لحل أمر هذه الجملة لا تحظى بموافقة الغالبية. أما دوسو فقد قرأ الكلمتين مع الكلمة التي بعدهما: (وبيّن بنيه الشعوب)، بمعنى فرّق بنيه بين الشعوب. لكن هذا غير شائع في العربية. إذ يجب أن يقال (بيّن بنيه بين الشعوب) أو (في الشعوب). وربما لهذا السبب عمد إلى تعديلها لاحقا إلى: (ونزّل بنِيهِ الشعوب)، أي أنزلهم في الشعوب وبينها.

واقترح ديرنبورغ: (نزّل)، مثل اقتراح دوسو المتأخر. كما اقترح كل من آلثيم وستيهل: (بيع) بمعنى بايع: (بايع بنيه الشعوبُ)، أي بايعت الشعوب بنيه على الحكم. وهو اقتراح صعب القبول. فليس هناك من دليل على وجود العين. واقترح بيستون: (نيّل) من الجذر (نول) أي أعطى (أعطي بنيه الشعوب)، اي أعطاهم قيادة القبائل. لكن الصيغة العربية يجب أن تكون (نوّل) بالواو لا بالياء.

وكما نرى فكل المقترحات تنطلق من قراءة دوسو في نهاية الأمر. أي تنطلق من أن الأمر يتعلق بأولاد امرئ القيس، الذي جرى تسليمهم، بشكل ما، أمر الشعوب– القبائل. وبذا فهي في الواقع مجرد محاولات لتسويغ الفهم ذاته للجملة.

الاقتراح الوحيد الذي خرج عن هذا القاعدة هو اقتراح بيلامي. ومن هنا تنبع أهميته، رغم عدم صحته في نظرنا. فبعد أن جرى استهلاك كل الاحتمالات الممكنة للكلمة التي قرأها دوسو على أنها (بيّن) من دون أن تثمر عن نتيجة معقولة، افترض بيلامي أن المشكلة لا تكمن في هذه الكلمة، بل في الكلمة التالية، أي كلمة (بنيه). أي أن علينا أن نعيد قراءة كلمة (بنيه) لا كلمة (بين). وقد أقدم على ذلك فعلا، فقرأ (بنَبَه) ملغيا بذلك وجود أبناء امرئ القيس من النص. وقد كان هذا في الواقع اقتراحا شديد الأهمية، بغض النظر عن صحته. فبحذف أبناء امرئ القيس من الصورة، أزيحت العثرة الكبرى التي اعترضت فهمنا للفقرة. أما كلمة (بنَبَه) فمكونة من الباء اللاصقة ومن كلمة (نبه)، التي فهمها بيلامي على أنها تعني (نابهي)، جمع (نَبه). أما الكلمة السابقة لها فأعاد قراءتها على أنها (نبّل) بمعنى رفق بـ: «قَال أبو زيد: يقال: انْبُلْ بقومك: أي ارفق بهم، وأنشد لصخرِ الغيِّ: فانْبُلْ بقومك إمّا كنتَ حاشرهُم/ وكلّ جامعٍ مَحشورٍ لـه نَبَلُ» (الزبيدي، تاج العروس). يضيف اللسان مفسرا: «وَكلِ جامعٍ مَحْشورٍ: أي سيد جماعة يحشُرهم، أي يجمَعُهم، له نُبُلٌ، أي: رِفْق» (لَسان العرب). وهكذا صرنا مع جملة: ونبّل بنابهي الشعوب، أي رفق بهم.

لكن المشكلة أن نابهي القبائل ليسوا بحاجة إلى من يرفق بهم، بل بحاجة إلى من يشركهم في الملك، بهذا القدر أو ذاك. كما أن جذر (نبه) يفتح احتمال قراءة أخرى مضادة جدا لقراءة بيلامي. ذلك أن الجذر يكاد يكون ضدا، أي يحمل معنيين متناقضين: «قال شمر: النَّبَهُ: المَنْسيُّ المُلْقَى الساقط الضال. وشيء نَبَهٌ ونَبِهٌ أي مشهور. ورجل نَبِيهٌ: شَريف» (لسان العرب). وهكذا، فنحن مع

النابهين والساقطين الضالين، في وقت واحد. وفي حال كنا مع الضالين فإن الجملة تكون معقولة أكثر. إذ تصير: (ورفق بضلال القبائل). هذا، إذا سرنا مع قراءة بيلامي، التي نعتقد أنها ليست صحيحة. فليس هناك أبناء لامرئ القيس في النص، كما ليس هناك نبهاء يرفق بهم.

أما نحن فنعتقد، بالفعل، أن هاتين الكلمتين مع كلمة الشعوب التي تليهما، هما جوهر النصف الثاني من النقش، وأنه على فهمهما يتوقف فهمنا للنص كله. فإن قرأناهما خطأ، فسيظل هذا النص مغلقا ومبهما من حيث المبدأ. والكلمات الثلاثة تؤخذ معا. وسوف نبدأ بالكلمة الوسطى بين هذه الكلمات، الكلمة التي قرأها دوسو على أنها (بنيه).

البيب والبيبه

ونحن نقرأ هذه الكلمة على أنها (بيبه)، وبالتحريك (بِيْبَاه). والبِيبة والبِيب اسم يطلق في العربية على القنوات التي تُشق كي تغذي سيلا أو جدولا، أو تشتق منه أيضا لنزح الماء للري: (البِيبُ: مَجْرى الماء إلى الحَوْض. وحكى ابن جني فيه: البِيبةَ. ابن الأَعرابي: بابَ فلان: إذا حَفر كوّة: وهو البِيبُ... والبِيبةُ: المَثْعَب الذي ينْصبّ منه الماء إذا فُرِّغَ من الدَّلْو في الحوض، وهو البِيبُ والبِيبةُ» (لسان العرب).

إذن، فالبيب أو البيبة هو مجرى الماء إلى حوض أو بركة، أو هو مسيل الماء من حوض أو مجرى ماء. وحين يقال: باب فلان بيبة، فهو يعني أنه شق قناة ما، توصل الماء إلى حوضٍ أو مجرى. والاسم منها هو التبييب: «وفي لسان العرب عن ابن الأعرابِي: باب فلان يَبِيب: إذا حفر كوة: وهو البِيب» (الزبيدي، تاج العروس).

ولأن اللغويين ليسوا مهندسي مياه جيدين، فإن شروحهم تظل غامضة. لذلك سوف نذهب إلى حديث نبوي هو حديث (سيل مهزوز ومذينيب) الشهير، الذي يتعلق باقتسام مياه السيول بين المزارعين:

«حديث سيل مهزور ومذينيب حديث مدني مشهور عند أهل المدينة، مستعمل عندهم، معروف معمول به [أي مستعمل في اقتسام مياه السيول]. ومهزور واد بالمدينة وكذلك مذينيب واد أيضا عندهم. وهما جميعا يسقيان بالسيل. فكان هذا الحديث متوارثا عندهم العمل به. وذكر عبد الملك بن حبيب أن مهزور ومذينيب واديان من أودية المدينة يسيلان بالمطر وتتنافس أهل الحوائط في سيلهما. فقضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعلى فالأعلى والأقرب فالأقرب إلى ذلك السيل. يدخل صاحب الحائط الأعلى اللاصق به السيل جميع الماء في حائطه ويصرف مجراه إلى بيبته، فيسيل فيها، ويسقي به، حتى إذا بلغ الماء من قاعة الحائط إلى الكعبين من القائم أغلق البيبة، وصرف ما زاد من الماء على مقدار الكعبين إلى من يليه لحائطه، فيصنع فيه مثل ذلك ثم يصرفه إلى من يليه أيضا، هكذا أبدا يكون الأعلى فالأعلى أولى به على هذا الفعل حتى يبلغ ماء السيل إلى أقصى الحوائط قال وهكذا فسره لي مطرف وابن الماجشون عند سؤالهما عن ذلك وقاله ابن وهب قال وقد كان ابن القاسم» (ابن عبد البر، التمهيد).

وكما نرى، فالأمر واضح تماما هنا، فهناك سيول تغذي واديا من الوديان، فيقتسم المزارعون ماءه بناء على نظام ما. وكل واحد يحاول أن يصرف الماء إلى بيبته، أي إلى قناته التي شقها كي يحصل عبرها على ماء السيل. فالذي تقع أرضه على حد السيل يفتح (بيبة) أي قناة، أي مجرى فرعيا، يجر من خلاله الماء إلى زرعه، ثم حين يكتفي، يقفل بيبته، كي يترك لمن هم أسفل منه أن يأخذوا حظهم من الماء، وهكذا. وبهذا يجري حل التنافس على مياه السيل بين المزارعين، كما يشير نص الحديث. ويسمي أهل البصرة ساقي المياه بيّابا من هذا المعنى: «وأهل البصرة في أسواقهم يسمون الذي يطوف عليهم بالماء: بَيَّاباً» (الأزهري، تهذيب اللغة).

فالبياب كان في ما يبدو يفتح فتحة (بيبة) ويجر ماء النهر إلى حوض يملأ منه قربه بالماء ويبيعها للشاربين.

نقش النّمارة يتحــدث أيضا عن البيبات، لكنه في ما يبدو يتحدث عن قنوات تغذي السيل، كي تزداد مياهه، وقنوات تأخذ منه الماء أيضا.

إذن فكلمــة (بيبه) فــي النص هي (بيبــاه) بالجمع، أي قنــوات. وبِناء علــى هذا يمكن بسهولة قراءة الكلمــة التي قبلها وفهمها. إنها (بَزِل)، بمعنى: شق وحفر. بالطبع يمكن قراءة الكلمة على أنها (بيّب)، بمعني فتــح بيبــة، أي قناة. وهي قــراءة صالحة جدا. لكننا أميــل إلى (بزل). ولــو أن الباحثين لم يعلقوا مع أبناء امرئ القيس لكان من قرأ (نزل) قد توصل سريعا إلى (بزل). فلا يحتاج الأمر سوى إلى تغيير وضع النقطة مــن فوق الحــرف إلى تحته. لكن ذلك لم يحــدث لأننا علقنا مع أبناء امرئ القيس المفترضين.

بناء عليه فالجملة تقول: (بــزل بيباه). ومع إضافة الكلمة التالية نصبح مــع: (وبزل بيباه الشعوب): أي شق قنــوات الشعوب. وسوف نفهم بعــد قليل معنى كلمــة الشعوب هنا. أما الآن فلنــأت بمقتبسات حول البزل. والبزل على علاقة وطيدة جدا بالري وقنواته. فجذر بزل يعطي ثلاثة معــان رئيسية: الشــق، والتصفية، وتسييل السوائــل وتصريفها: «بَزَل الشيءَ يبزُله بَزْلاً وبَزَّله فَتَبَزَّل: شَقَّه. وتَبَزَّل الجسد: تَفَطَّر بالدم، وتَبَزَّل السِّقاء كذلــك. وسقَاءٌ فيه بَزْلٌ: يَتَبزَّلُ بالمــاء، والجمع بُزُول. الجوهري: بَزَل البعيرُ يَبْزُلَ بُــزُولاً: فَطَــر نابُــه أي انْشَــقَّ، فهو بازل» (لسان العرب).

يضيــف اللســان: «وتَبَزَّل الشــيءُ إذا تشقــق... وبَزَل الخَمرَ وغيرَها بَــزْلاً وابْتَزَلَهــا وتَبَزَّلها: ثقــب إناءهــا، واســم ذلك الموضــع البُزَالُ وبَزَلَها بَزْلاً: صَفّاهــا» (لســان العــرب). ومن الواضــح أن البزل في الجملة يعني الشق من دون أي شك. فالنقش يقول: (وبزل بيباه)، أي شق القنوات.

لكن السؤال: أين هو النهر الذي تشتق له القنوات في النص؟
والجواب: أنه موجود في الكلمة التالية (الشعوب). فهذه الكلمة التي

فهـم أنها تعني: القبائـل، إنما تعني في الحقيقـة: السيل، الوادي. أي أن الأمـر يتعلق بمجرى مائي أو نهر شتوي: «الشَّعْب: مسيل الماء في بطن من الأرض [منخفض مـن الأرض].. والشُّعْبة: المسيل الصغير. يقالُ: شُعْبةٌ حَافـل أي ممتلئـة سيـلا. والشُعْبـة: ما صَغُر عـن التَّلْعة. وقيل: ما عَظُم مـن سواقي الأودية. وقيل: الشُّعْبة ما انْشَعَب من التَّلْعة والـوادي، أي عَدَل عنـه، وأخَذ في طريق غير طريقـه، فتلك الشُّعْبة، والجمع شُعَبٌ وشِعـابٌ» (لسان العرب). يضيـف المخصص: «وما عظـم مـن سواقـي الأوديـة فهي شعب، وهـي أعظم مـن التلاع... والشعب – مسيل الماء فـي بطـن مـن الأرض له حرفـان مشترفان وعرضه بطحة رجلٍ» (ابن سيدة، المخصص).

ويبـدو أن نقش امرئ القيس قد استخدم (شَعوب) بـدل (شَعْب) أو (شُعبـة)، هذا إذا كانت قراءة الكلمة في النص دقيقة. وقد وردتنا كلمة شعـوب كوصف للماء، لكن بمعنـى الماء البعيد كما قيـل لنا: «وماء شَعْب: بعيد. والجمع شُعُوب. قال الشاعر:

كما شَمَّرَتْ كَدْرَاءُ تَسْقِي فراخَها / بعَـرْدةَ رِفْها والمِياه شُعُوبُ» (ابن سيدة، المحكم والمحيط الأعظم).

غيـر أن هناك من رأى أن شعوب هنا تعني: متفرقة. ونعتقد أن هذا هو المعنى الصحيـح. ذلك أن كلمة شعب وشعـاب وشعوب جاءت من تشعب الماء وتفرقه فـي مسايل وقنوات. ومن المحتمل أن (شعوب) فـي النص صيغة مبالغة على وزن (فعـول)، تهدف إلى إظهار ضخامة الوادي وسعته، فهو مما: «عَظُم من سواقي الأودية».

بنـاء عليه، فالجملة كلها تعني: (وحفر بيبَاه الشَعوب)، أي قنواته، من أجـل تغذية الوادي–الشعوب بالميـاه، أو جرها منه، أو بالمعنين معا. بالتالـي، يكون النص قد جمع بيب أو بيبه علـى بيباه. وليس لدينا في القواميـس جمع لهذه الكلمة. فقـد وردت بالإفراد فقط. لكن نظريا، فـإن بيـب تجمع علـى أبياب. في حيـن أن بيبه تجمع علـى أبياب أو

بيبــات. لكــن النص جمع على بيباه، ما لم يكــن علينا أن نقرأ الحرف الأخير على أنه تاء مربوطة، وحينها نكون مع بيبات حقا.

الشعوب

والآن، أيــن يقع هذا الشعــوب، هذا الوادي، أو السيــل الكبير، الذي يشير إليه نقش النّمارة، نقش امرئ القيس بن عمرو؟ وهل نستطيع أن نشير إليه بالإصبع، وأن نسميه؟

الجواب: نعم، يبدو أننا نستطيع ذلك. وضريح امرئ القيس، الذي عثر على نقش النّمارة بين أنقاضه هو الذي سيشير لنا على هذا الشعوب.

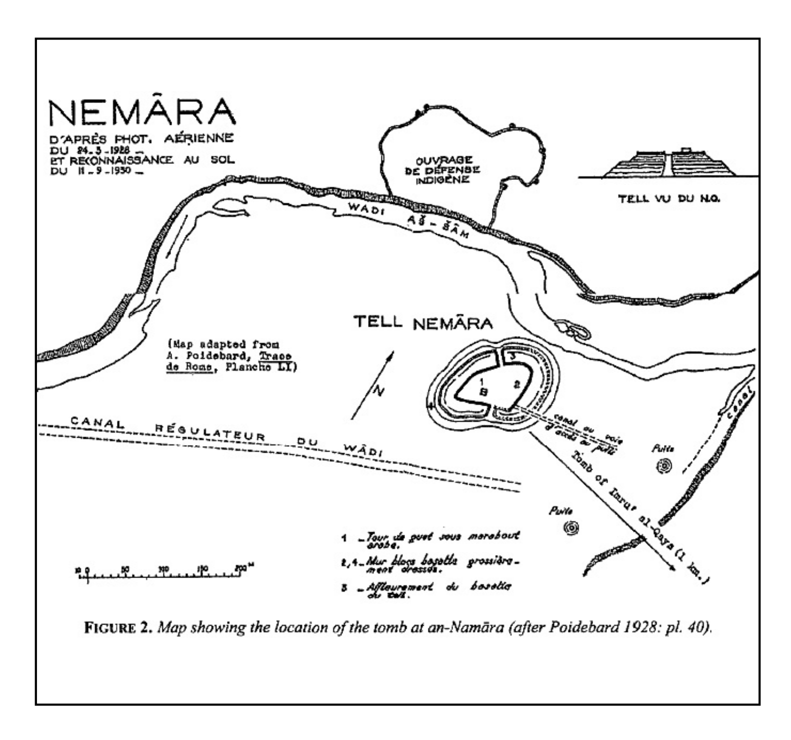


FIGURE 2. *Map showing the location of the tomb at an-Namāra (after Poidebard 1928: pl. 40).*

خارطة تبين موقع قبر امرئ القيس. القبر مشرف على وادي الشام. وأدناه قناة لتنظيم وصول الماء للوادي. الصورة من بيوديارد عبر مانفريد كروب

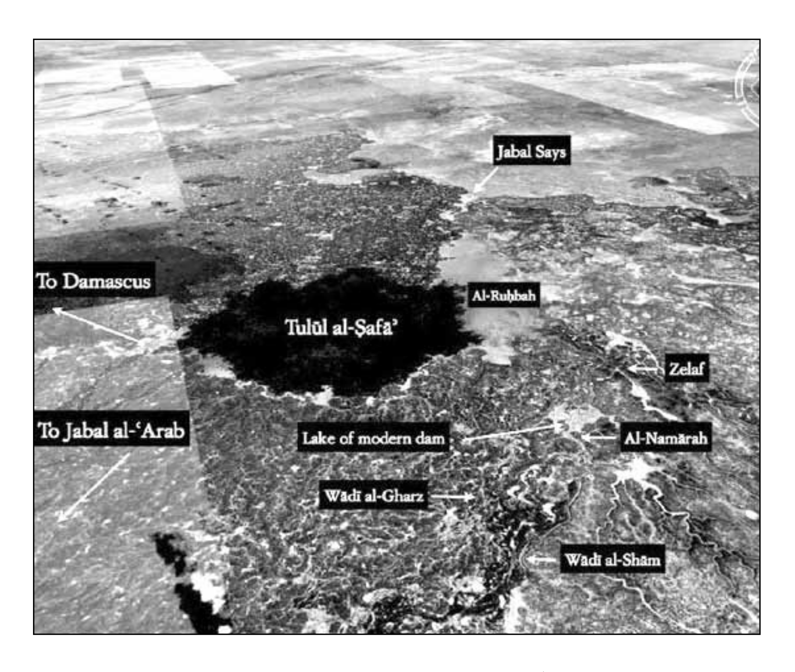
وكما نرى في الرسم أعلاه من أواخر عشرينات القرن الماضي، فالتلة التـي أقيم فوقها قبر امـرئ القيس تطل على الوادي الكبير الذي يدعى (وادي الشـام). ولا بد أن هذا الوادي هـو الذي يتحدث عنه النقش. ولنلاحـظ القناة الكبيرة في أسفل الرسم. إنها قناة لتنظيم وصول الماء إلى الوادي. فهي تلم الماء النازل من مرتفعات جبل العرب وتديره إلى مجـرى السيل، لتجعله يهدر مثل نهر حقيقي. وفي الغالب، فإن هناك قنـوات أخرى غيرها لأن الحديث في النقش يجري عن قنوات لا عن قناة واحدة في ما يبدو.

مشروع ري ضخم

وبعـد أن كنا قـد أنجزنا هذا الفصـل قرأنا ورقة لميشيـل ماكدونالد، نتجت عن مشاركته في مسح إنقاذي لمنطقة النّمارة جرى عام 1996، تمهيدا لإنشاء سد كبير فيها. والصورة التي يعرضها ماكدونالد في هذه الورقة تدعم صحة ترجمتنا للنقش، وعلى الأخص القسم المتعلق منها بـ (الشعوب)، الذي افترضنا أنه وادي الشام. فمن الورقة يتضح وجود مشـروع مائي معقد وكبير على وادي الشام وروافده، وهو المشروع الذي تحدث عنـه النقش بسطر وثلث سطر، لكنـه أوضح أهميته في جملـة حاسمة فهمـت خطأ. فهي تعني: (فلم يبلغ مـاء مبلغه) أو (فلم يبلغ واد مبلغه) كما سنرى لاحقا.

وعلى النحو أدناه تجسد لنا الورقة هذا المشروع بفخامته أمام أعيننا:

«بالإضافة إلى ذلك، هناك قنوات لجر المياه إلى الحقول، وفي الغالب من مسافة كيلومتر. وهناك عدد من هذه الحقول بجانب بعضها، تمتد على مساحـة تساوي 3.25 هيكتارا، ودائمـا بترتيبات معقدة للري. الحقول ونظم الري نادرة جدا في الحرة. والنموذج الآخر المعروف هـو حقل مداه 3 كـم إلى الشمال مـن النّمارة، علـى الضفة اليسرى لوادي الشام...



صورة جوية لمنطقة النّمارة ويظهر فيها وادي الشام ووادي الخز، كما تظهر على مبعدة وتلول الصفا وجبل سايس (أسيس). الصورة من ماكدونالد

«وثمــة منشآت مائية كثيفة في النّمارة. وهذه الحقول لا بد أنها كانت تروى بماء المطر في سنة جيــدة المطر، لكنها كانت تسقى بالقنوات من سدود في وادي الشام عندما كان يفيض...

«مجموعــة أخرى من المنشآت المائيــة كان هدفها حبس ماء السيول لفترة تكفي لغمــر الأرض وتغذية المياه الجوفية. وهذا يقتضي وجود حوضـ يستقر فيه الماء بعض الوقت كي يتمكن من التسرب للأسفل. فخــلال السيل يكون دفق مياه وادي الشام أسرع من أن يسمح بتكون حوضـ في مجراه. لذلــك أقيم الحوض في أحد روافــده، ليس بعيدا عن الحد الجنوبي– الشرقي للجزيرة [الجزيرة التي تكونت بين وادي الشام ورافده، والتي أقيم ضريح امرئ القيس على تلة في طرفها]...

«ومن أجل عدم فقدان مياه وادي الشام، فقد أقيم سدان على مسافة 2 كلم و 1 كلم من مدخل الجزيرة، بهدف رفع مستوى الماء المحبوس وراء السد بحيث يصل إلى القنوات التي تأخذه لمسافة 800 م إلى الحوض المقام في الرافد جنوب– شرق الجزيرة. ورغم أن الحوض يبدو صغيرا نسبيا (حوالي 250 متر مربع، وبعمق غير معروف) فإنه يكفي في سنة عادية لجمع ما يكفي من الماء لتغذية الآبار التي حفرت على مبعدة قليلة إلى الشمال»
(Macdonald M، 2008، page 319)

وكما نرى، فنحن أمام مشروع ضخم بمقاييس تلك الأيام، بل وبمقاييس هذه الأيام حتى. مشروع يشمل قنوات تغذية، وقنوات سحب، وسدود، وأحواض تبريك لتطويل فترة بقاء الماء، ولتغذية الآبار الجوفية. هذا المشروع الضخم هو الذي جعل نقش امرئ القيس يصف وادي الشام بعده بأنه: «لم يبلغ ماء مبلغه»، كما سنرى. وهذا بحد ذاته يكفي لتخليد ذكرى هذا الملك العربي. بذا هو ليس بحاجة إلى أن يكون ملكا أسطوريا للحيرة، ولا إلى غزوات حربية كبيرة، فما فعله لا يقل بهاء عما فعله غيره من الملوك، بل هو يزيد عما فعلوه بكثير.

في كل حال، فقد قدم لنا ماكدونالد فرضية يمكن لها أن تفسر القاعدة التي قامت عليها سلطة هذا الملك، كما تفسر حاجة الروم إليه. ففي سياق تعليقه على الحصن الروماني الصغير في منطقة النّمارة يقول: «بدلا من ذلك، لعلني أقترح أن الهدف من بناء حصن صغير هنا، كما في: جبل سيس، برقع، الأزرق، وربما دير الكهف، ربما كان ضبط المحاضر [أماكن تجمعات البدو في المواسم المحددة]، ومصادر المياه شبه الدائمة، التي يعتمد عليها البدو في فصل الجفاف (القيظ)، حيث يجتمعون هناك من أجل أمطار الخريف. من دون مثل هذه الأماكن فإن البدو سيهلكون مع مواشيهم. وهذا هو السبب الذي جعل غلوب باشا يقيم، في الثلاثينات والأربعينات،

حصونا صغيرة في المحاضر فـي الأردن، وهو ما كان مفتاحا رئيسيا لنجاحـه فـي جمع البدو هنـاك، ووضعهـم تحت سيطـرة الحكومة (Macdonald M، 2008، page 319)

هـذه في ما نعتقـد فرضية تصلح لتفسير نجاحـات امرئ القيس. فعن طريق السيطرة علـى الموارد المائية، وتنميتهـا وإدارتها، استطاع أن يسيطر علـى القبائل المتجولة، وأن يدفعها نحـو النظام والتوقف عن الغـزو. هو يوفر لهـا مصـدرا دائما للميـاه، وهي تهـدأ وتستقر، بل وتحمـي معه الحدود، حـدود الدولة البيزنطية فـي منطقته، فقد كان ملكا لهذه الحدود.

الفرس والروم

بناء على هذا يمكن لنا أن نقرأ الجملة اللاحقة، والتي أثارت الصداع هـي الأخرى: (ووكلهم فرسولروم). أما الكلمة الأولى فهي واضحة لا لبسـ فيها. فاللبسـ يتركز في (فرسولروم) وقـد قدمت اقتراحات عديـدة لفهمها، ولفهم الكلمة الأولى (فرسو) على وجه الخصوص. وقـد انقسم أصحـاب هذه المقترحات إلى معسكريـن كما يقول لنا بيلامـي: معسكر يعتقد أن الأمـر يتعلق بالفرسـ، ومعسكر ثان آخر يعتقـد أن الأمر يتعلق بالفرسان والخيل. وقـد فهمها دوسو على أنها تعنـي (للفرسـ والروم)، رغم أن هذا الفهم غيـر ممكن بناء على تتبع الحـروف: (ف ر سـ و ل ر و م). إذ ما سنعمل باللام هنا؟ هذه اللام أثـارت الشكوك حول قـراءة دوسو دوما. وعلى كل حـال، يبدو أن دوسـو تخلى عن وجود الفرس لاحقا. وهناك من قرأ (فَرَسُوا للروم)، أي صـاروا فرسانا للروم. لكن هناك مـن اقترح أن الفاء استئنافية فقرأ مضيفـا همزة: (فرأسـوا للروم)، أي صاروا رؤسـاء على هذه القبائل لكن للروم.

وفـي كل حال، فقـد كان عزل الفاء وحدها أمرا مهمـا. ذلك أنه أدى بشكل مـا للتشكيك في وجود الفرس، وأدى مـن ثم إلى طردهم من

النقش. أي أنه جرت إزاحة الفرس والاكتفاء بالروم وحدهم. لكن يبدو أن الأمر انتهى بطرد الروم أيضا من النص. فقد اقترح كروب، الذي حول الراء إلى دال، وهما حرفان متشابهان في النبطية المتأخرة، وقرأ: (فرسوا للدوم)، أي: رسخوا للدوام، أي بشكل دائم. لكن هذه القراءة الجيدة جدا وضعت في سياق خاطئ. إذ أن كروب ما يزال يؤمن بوجود أبناء لامرئ القيس في النص، حكموا القبائل، فرسا ملكهم وملك أبيهم بشكل دائم.

والحال أنه صار سهلا علينا الآن قراءة هذه الكلمات بعد أن حللنا أمر الفقرة السابقة، وبعد ان قدم كروب مقترحه، الذي سنضعه في سياق جديد. بالتالي، فالجملة تقرأ هكذا «ووكلهم– أي البيباه– البيباه، فرسوا للدوم». أما (وكلهم) فتشير إلى القنوات التي حفرت – وقد وردت بصيغة التذكير من (بيب) – فقد توكل بها الملك واعتنى بها فرست، أي ثبتت، بشكل دائم. فالقنوات بحاجة إلى صيانة وترميم في كل موسم. وقد قام الملك وعماله بهذه المهمة خير قيام. فرسخت القنوات وثبتت. وإذا صحت هذه القراءة، فيجب أن تكون كلمه (بييه) جمعا، أي (بيباه). فالضمير في وكلهم يشير إلى الجمع. كما أن الواو في (فرسوا) هي واو الجماعة. عليه، يجب أن نفترض وجود عدد من القنوات تغذي النهر، أو تنضح منه.

فلم يبلغ ملك مبلغه؟!

نأتي الآن إلى الجملة الحاسمة (فلم يبلغ ملك مبلغة)، التي أكدت للباحثين منذ البدء أن النص عربي تماما، وأن لغته لغة مثل لغة القران والشعر الجاهلي. إنها جملة عربية مختصرة، دقيقة، ومتقنه. لكنها فوق هذا جملة مهيبة أيضا. فقد لخصت، وبإيقاع عربي صميم، ما يعتقد أنها صورة الملك امرئ القيس الذي «لم يبلغ ملك مبلغه».

لا أحد تساءل حول هذه الجملة. فهي واضحة وضوح الشمس، ولا تحتمل أي جدل بشأن معناها. غير أن قراءتنا للجمل السابقة قد تتيح

لنا أن نقــدم قراءة أخرى لهذه الجملة. والجمــل السابقة تحدثت عن المياه والسيل والقنوات. فهل يمكن أن تكون هذه الجملة في السياق ذاتــه؟ أي هل يمكن أنها جملة تتحدث عن الشعوب ومائه؟ نعم، هذا هو الاحتمال الأكبر في ما نعتقد.

وكنــا من قبل قــد أشرنا في سابق حديثنا عن الأسدييــن ونزار أن كلمة (وملوكهم) في النص قد تعني آبارهم، أو مصادر مياههم. فكلمة ملك تعنــي: المياه والآبار في العربية. وحين تقول العرب ملوكنا فهي تعني مياهنــا: «حكي عن ابن الأعرابــي، قال: ما له مَلْك ولا نَفْر، بالراء غير معجمة، ولا مِلْكٌ ولا مُلْك ولا مَلَكٌ؛ يريد بئراً وماء، أي ما له ماء. ابن بُزُرْج: مياهناَ: مُلُوكنا» (لسان العرب)

بنــاء عليه فمن المحتمل أن علينا أن نفهم كلمة «ملك» في جملة «فلم يبلــغ ملك مبلغــه» على أنها تعني: مــاء. أي أنه يجــب قراءتها هكذا: «فلــم يبلغ ماء مبلغه». فبعد أن شقت قنــوات التغذية، وصرفت المياه المتدفقــة إلى مجرى الوادي، صار واديا هــدارا، لم يبلغ مصدر مائي طاقتــه وأهميته. بالتالي، فالضمير هنا يعود على (الشعوب– السيل) لا على الملك امرئ القيس، أي على وداي الشام. فهذا الوادي الذي شق قنواته امرؤ القيس، وتعهده صار واديا فريدا من نوعه.

الوادي، إذن، هو الذي لم يبلغ واد آخر مبلغه، لا الملك امرئ القيس.

لقــد تبخــر امــرؤ القيســ إذن. لا ، لم يتبخــر. لقد وضــع في حجمه الحقيقي فقط. أما الذي تبخــر فهو أوهام الباحثين حول امرئ القيس ملــك الحيرة الأسطوري. ليســ ثمة ملك للعرب كلــه هنا في النص، وليســ ثمة حيرة، ولا فرس وروم. كما ليس ثمة من معارك وفتوحات كبرى. ثمــة مملكة قبلية صغيــرة على (الحد العربــي) للولاية العربية البيزنطية، على رأسها ملك – شيخ حكيم، قدمه وقدم إنجازاته لنا هذا النقش العربي الفريد من نوعه. هذا هو كل شيء.

غير أن علينا أن نحتاط هنا، فنقول أن قراءتنا لن تكون صحيحة إذا كان النقش يتحـدث عن عدة شعب، وليس عن شعب واحد. ذلك أن الباء فــي «مبلغه» تشير إلى مفرد لا إلــى جمع. وحينها يكون المقصود هو الملــك امرؤ القيس بن عمرو، فهو الــذي «لم يبلغ ملك مبلغه». لكن هذا احتمال ضيئل جدا، في ما نعتقد.

عكدي

نأتــي الآن إلــى السطــر الخامس الــذي يحدثنا عن تاريــخ وفاة امرئ القيس:

5. **<u>عكدي</u> هلك سنة 223 يوم 7 بكسلول <u>بالسعد</u> ذو ولده**

أمــا اللغز الأكبر في هذا السطر فهو كلمة (عكدي) التي مرت معنا من قبل. وقد أوضحنا أن الكلمة في الموضعين تعني شيئين مختلفين. فهي فــي السطر الثالث اســم لقبيلة، في أغلب الظن. أمــا هنا فلا يمكن أن تكون اسما لقبيلة. فقد انتهى تعداد القبائل في السطر الثالث.

وقد تهيأ لأحد الباحثين العرب أن هذه الكلمة الغامضة ربما تكون اسما لشخص. وهكذا قرأها مع الكلمة التي بعدها: (عكدي هلك) على أنها (توفــي عكدي)، وأعاد قــراءة النقش كله بناء على ذلــك. فالنقش ليس نقش امرئ القيس، بل هو نقش لشخص يدعى عكدي، من أتباع امرئ القيس، وهــو يبدأ نقشه بالقسم باسم الملك امــرئ القيس وروحه، ثم يتحدث عن معاركه وغزواته. بالطبع، يبدو لنا هذا اقتراحا مستحيلا.

الــكل يدرك أن لكلمة «عكدي» علاقة بإعلان السطر عن موت امرئ القيســ، لكن من دون الوصول إلى تقديــر مرض ودقيق لمعناها. فقد افترضــ بعضهم أنها تعني (ثم) أو (بعــد ذلك). أما بيلامي، الذي ألزم نفســه بقاعدة أن هذا النقش يمثل لغــة عربية كلاسيكية، وأنه لا يجب الخروج عن هذه القاعدة حين نواجه صعوبة في فهم كلمة من كلماته،

فقـد خرج عـن القاعدة، واقتـرح أن الكلمة اختصار لـ (عن قضى)، بمعنـى (بعد ذلك). وهو اقتراح مخترع ليس له أي سند في القواميس العربية كلها. لذا فلا يمكن القبول به.

أمـا اقتراحنـا نحن فيقوم علـى أن كلمة «عكدي» علـى علاقة بكلمة «معكـود» التي وردت فـي بيت شعـري قاله رجل مـن بلحارث بن كعب:

سَنُصْلي بها القَوْمَ الذين اصْطَلَوْا بها
إلاَّ فـمَعـكودٌ لَـنـا أُمُّ جُـنـدُبِ

وقـد فسرت جملة «معكود لنا» هنا على أنها تعني: آخر أمرنا، أو آخر مصيرنـا: «ثم فسره [ابن الأعرابي] فقـال: مَعْكود: أي قصارى أمرنا وآخـره: أن نظلم فنقتـل غير قاتلنا، وأم جندب هنـا: الغدر والداهية» (ابـن سيـدة، المحكم والمحيـط الأعظـم). والحق أن هـذا المعنى يتوافق، بشكل ما، مع مضمـون السطر الخامس في النقش. إذ يمكن للجملـة أن تعني «وآخـر أمره هلك». أما ابن فارس فيقدم لنا تفسيرا قريبا من هذا، لكنه ربما أكثر دقة، وأفضل ملاءمة لوضع كلمة عكدي في النقش: «فمعناه أنَّ ذلك ممكّن لنا، مُعَدٌّ، مُجمَع عليه. وأمّ جندب: الغَشْم والظُّلم... والشيء المعَدّ معكود» (ابن فارس، مقاييس اللغة). بالتالـي، فجملة (معكود لنـا) قد تعني: «معدّ لنـا» أو «محتم علينا»، وهو ما يشير إلى الموت والقدر. عليه فجملة «عكدي هلك» قد تعني «حتـم الهلاك» أو «حل الهلاك» أو «قـدر الهلاك» أو «حُمّ القضاء». وهذا يعني أننا مع (هلاك) وليس مع (هلك)، أي مع مصدر لا مع فعل.

السعد والإسعاد

أمـا الجملة الأخيرة: والتي قرئت على وجهين: (يا لسعد ذو ولده) أو (بالسعد ذو ولده)، ثم جاء بيلامي الذي اقترح، وعبر تتبعه للنقش، أن الكلمـة الأخيرة يجب أن تقـرأ «والاه». وفي كل القراءات،

سواء تعلق الأمر بأقارب الملك أو بمن والاه، فقد كان محسوما أن الأمر يتعلق بالسعادة، سواء كنا مع (يا لسعد) أو (بالسعد)، أي سواء كنا مع ياء التعجب أو مع الباء.

أما نحن فنرى أن الأمر لا يتعلق بالفرح والسعادة. فالموت ليس موقف سعادة، بل موقف حزن على الراحل الكبير. بذا نعتقد أن الجملة تعني: (العزاء لأولاده ونسله). ذلك أن جذر «سعد» العربي يعطي معنى الفرح، ومعنى التعزية أيضا. فـ «الإسعاد» هو مشاركة الآخرين في الحزن على ميتهم. وقد جاء في الحديث النبوي: «لا إِسعادَ في الإِسلام». يقول الأزهري: «وروي عن النبي صلى الله عليه وَسلم أنه قالَ: لا إسعاد في الإسلام. وتأويله أن نساء أهل الجاهلية كنّ إذا أُصيبت إحداهن بمصيبة فيمن يَعِزُّ عليها بكته حولا، ويسعدها على ذلك جاراتها وذوات قراباتها، فيجتمعن معها في عداد النياحة وأوقاتها ويتابعنها ويساعدنها مادامت تنوح عليه وتبكيه. فإذا أصيبت صواحباتها بعد ذلك بمصيبة أسعدتهن بعد ذلك، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا الإِسعاد» (الأزهري، تهذيب اللغة). وفي حديث نبوي آخر: «قالت له أُم عطية: إنَّ فلانة أَسْعَدَتْني فأُريد أُسْعِدُها، فما قال لها النبي، صلى الله عليه وسلَم، شيئاً.» (لسان العرب). ويضيف الخليل: «والإسعاد لا يستعمل إلا في البكاء والنّوح. قال عمران بن حطان: ألا يا عينُ ويحكِ أسعديني/ على تقوى وبرّ ساعديني» (الخليل بن أحمد، العين).

وهكذا، فالمرأة كانت «تسعد» صاحبتها بالنواح على ميتها، أي تعزيها، وتساعدها في مصيبتها. لكن يبدو أن الإسعاد لم يكن مقصورا على نياحات النساء وتعزيتهن لصويحباتهن في وقت نقش امرئ القيس، بل كان اسما للتعزية عموما، ثم اختص بعد ذلك بالتعزية النسوية ونياحاتها.

بناء عليه نقرأ السطر الأخير هكذا: «ثم حُمّ الهلاك سنة 328 في السابع من كسلول. فالعزاء لنسله» أو «لمن والاه» بناء على قراءة بيلامي.

مصادر الفصل الأول

- الأزهري، تهذيب اللغة: www.alwaraq.net
- ابن الأثير المحدث، النهاية في غريب الحديث والأثر: www.alwaraq.net
- ابن دريد، جمهرة اللغة: www.alwaraq.net
- ابن سيدة، المخصص: www.alwaraq.net
- ابن سيدة، المحكم والمحيط الأعظم: www.alwaraq.net
- ابن الكلبي، هشام، نسب معد واليمن الكبير: www.alwaraq.net
- ابن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد www.raqamiya.org
- ابن منظور، لسان العرب
- ابن فارس، مقاييس اللغة: www.alwaraq.net
- البلاذري، أنساب الأشراف: www.alwaraq.net
- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام).
- الخليل بن أحمد، العين
- الذييب، سليمان بن عبد الرحمن، نقوش الحجر النبطية، الرياض 1998
- الذهبي، تاريخ الإسلام: www.alwaraq.net
- رنيه دوسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، لجنة التأليف والنشر، 1959
- الزبيدي، تاج العروس
- السمعاني، الأنساب: www.alwaraq.net
- الصحاح في اللغة، الجوهري www.alwaraq.net
- الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة: www.alwaraq.net
- ياقوت الحموي، معجم البلدان: www.alwaraq.net

- Macdonald Michael C. A. 2008, Transformation and continuity at al-Namara: Camps, Residences, Castles, Settlements, Transformation Processes from Late Antiquity to Early Islam in Bilad al-Sham, Karin

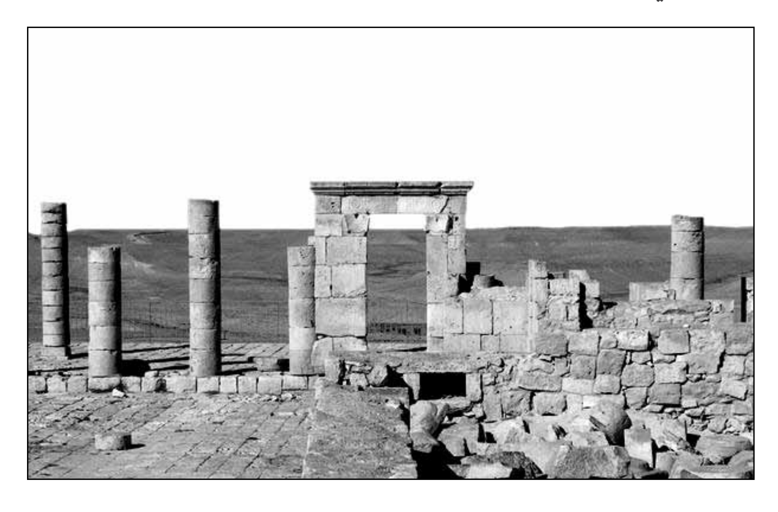
Bartl – Abd AL-Razzaq Maoz (Eds.), Residences, Castels, Settlements, Transformation Processes From Late Antiquity to Early Islam in Bilad Al-Sham, Verlag Marie Leidorf GmbH . Rahden/Westf, 2008

- Kropp, Manfred, , Burden and succession: a proposed Aramaicism in the inscription of Namara, or the diadochs of the Arabs, Proceedings of the Seminar for Arabian Studies Vol. 36, Papers from the thirty-ninth meeting of the Seminar for Arabian Studies held in London, 21-23 July 2005, 2006, Archaeopress. Irfan Shahîd, Byzantium and the Arabs in the Fourth Century, Dumbarton Oaks, 1984
- Bellamy, James A., A New Reading of the Namārah Inscription, Journal of the American Oriental Society, Vol. 105, No. 1 (Jan. - Mar., 1985), American Oriental Society

الفصل الثاني

نقش عين المريفق (عين عبدات)

يمكن القول أن العام 1979 شهد خاصا جدا في تاريخ الأدب العربي واللغة العربية. ففي هذا العام اكتشف نقش يحوي سطرين يعتقد أنهما يمثلان أقدم نص شعري عربي مكتوب نملكه حتى الآن. وقد عثر على النقش في (عين المريفق)– أو (عين عبدات) كما تدعى في الشائع– على مبعدة أربعة أو خمسة كيلومترات من مدينة (عبدات = عبادة) النبطية في النقب بفلسطين.



معبد الإله (عبادة) النبطي في مدينة (عبدات = عبادة) في النقب بفلسطين

النقش مكون ستة أسطر؛ ومكتوب بالحرف النبطي. ثلاثة من الأسطر باللغـة النبطية– الآراميـة، وسطران باللغة العربية. أمـا السادس، وهو يحمل توقيع صاحب النقش، فمختلف عليه. فهناك من يقول أنه كتب بالنبطية، وهناك من يقول: بل بالعربية.

النقشـ غير مؤرخ. لكن ناشريـه رأوا أن تاريخه يقع بيـن نهاية القرن الأول الميـلادي، وبدايـة القرن الثاني (بيـن 80–125 م). وإذا صح هذا، فهو أقدم نقش باللغة العربية يعثر عليه حتى الآن. فهو يسبق نقش النّمـارة الشهير ب 200 عـام تقريبا. وقد جرى توقيت النقش انطلاقا من غياب النقوش عـن منطقة النقب منذ بداية القرن الثاني الميلادي. عليـه، فقـد افترض أن تاريخـه لا يتجاوز هذه الفتـرة. غير أن كنوف يخبرنـا أنه جـرى العثور لاحقا على نقش نبطي يعـود إلى فترة ليست أبكر من القرن الرابع الميلادي. بذا «فنقش عبدات يكون قد كتب في وقت ما بين نهاية القرن الأول وبداية القرن الرابع» (Knauf،2010، page 233)

أي أنه في الواقع يمكن أن يكون قد كتب في الفترة التي كتب فيها نقش النّمـارة (328م). غير أن مقارنة بسيطة بيـن أشكال الحروف النبطية فـي نقش عين المريفق ونقش النّمـارة تبين أنهما يصعب أن يكونا من فتـرة واحدة. فالحرف النبطي في نقشـ النّمارة كان قد قطع شوطا لا بأسـ به في طريق تحوله إلى حرف عربـي. أما نقش عين المريفق فلا يبدي مثل هذا التطـور، فهو يقدم حرفا نبطيا أكثر كلاسيكية. بالتالي، فنحـن أميل إلى القبول بالتأريـخ السائد للنقش (بين نهاية القرن الأول وبداية الثاني الميلادي).

وإذا ثبـت أن السطرين المذكورين يمثـلان بيتي شعر، أو شطري بيت شعـر، فإن النقاش الذي اندلع مع كتـاب طه حسين (الشعر الجاهلي) فـي أوائل القـرن العشرين حـول الشعر الجاهلي سيوضـع على سكة مختلفـة. إذ سيكون لدينا وثيقة شعريـة، لا يمكن الشك في صحتها، سبقت الإسلام بعدة قرون.

النقش

وأدنـاه تخطيـط حـروف النقش، ثـم نص النقش، بقسميـه النبطي والعربي، وكما قرأه ناشراه، معروضا بالحروف العربية.

الجزء النبطي في النقش:

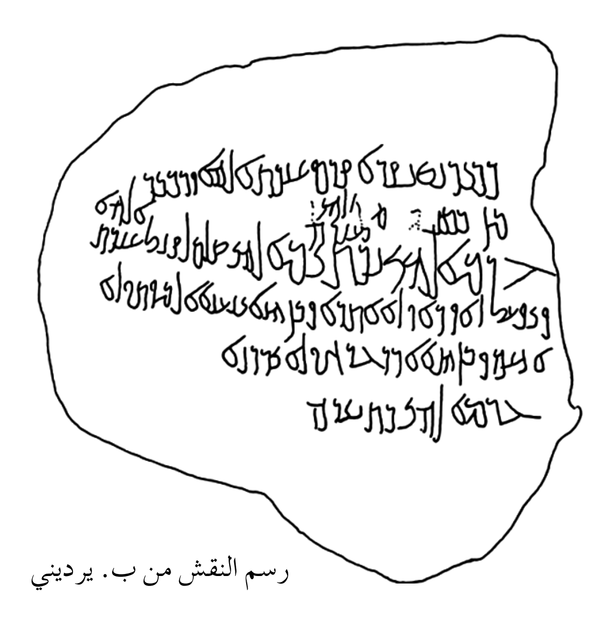
1. دكير بطب قرا قدم عبدت إلها ودكير
2. من ...
3. جرم إلهي بر تيم إلهي صلم لقبل عبدت إلها

الجزء العربي:

4. فيفعل لا فدا ولا أثرا فكن هنا يغنا الموتو لا
5. أبغه فكن هنا أرد جرحو لا يردنا

السطر الأخير:

6. جرم إلهي كتب يده.



رسم النقش من ب. يرديني

وكما نرى فالسطـر الثاني من النقش النبطي تضرر بشدة بفعل الزمن. عليه فما تبقى من النقش البنطي عمليا إنما هو السطران الأول والثالث. وتقول ترجمة النقش النبطي:

1. ليتذكر جيدا من يقرأ أمام الإله عبادة، وليتذكر
2. من ...
3. جرم إلهي بن تيم إلهى صنما قدّام الأله عبادة

والحـق أن انمحاء السطر الثاني منعنا من فهم النقش النبطي ومحتواه، وصعّـب علينا، بالتالي، حل مشكلات النقش العربي. فلو كان النقش النبطي سالما لتمكنا علـى الأقل من فهم موضوعه الرئيسي، وإن كان نصا نذريا، أو تذكاريا أو غير ذلك، الأمر الذي كان سيساعد على فهم النصـ العربي، لأنه يفترض منطقيـا أن النقشين يتحدثان بشكل ما عن الموضوع ذاته.

في كل حـال، فقد صُفَّت كلمات النص العربـي عند ناشريه على هذا الشكل:

«فيفعل لا فدا ولا أثرا. فكن هنا يبغنا الموتو لا أبغه فكن هنا أرد جرحو لا يردنا»

وقد افترض الناشـران، نافيه وشاكد، أنه يجب إجراء بعض التعديلات الصغيرة على النص حتى يصير مفهوما:

«فيفعـل لا فـدا ولا أثرا. فـكان أن يبغنا الموتـو لا أبغه فـكان أن أرد جرحو لا يردنا»

أي أنهما قرءا «فكان» بدل «فكن»، وهذا أمر مشروع. لكنهما حولا «هنـا» إلى «أن»، وهـذا غريب وغير شرعي، إضافة إلـى أنه لا يوسع فهمنا للنص.

وحيـن رأيـت، وللمرة الأولى، هـذا الكلام مصفوفا قـدام عيني على

الورقـة، مع تفسيراته المفترضة، قلت فـي نفسي: هذه كلمات عربية بالتأكيـد، لكن هذا ليـس كلاما عربيا. بذا فقد بدا لـي أن الأمر يتعلق بالتقطيـع، تقطيع الكلام. ثمة خلل ما في التقطيع. ويجب البحث عن تقطيـع آخر ملائم يحـول الكلمات العربية إلـى كلام عربي. وهذا ما حاولنا أن نفعله هنا في هذا الفصل.

فـي كل حال، فقـد جاء التعديـل الأهم على قـراءة نافيـه وشاكد من بيلامـي Bellamy الذي قـرأ: «أدد جرح لا يددنا»، بدل «أرد جرح لا يردنـا»، مفترضا أن كلمتي «أدد» و «يدد» من الجذر «دود» الذي يعطـي معنى التدويد، أي ظهور الديدان في شيء أو جرح: «يقال دَادَ الشيءُ يَدَاد، وأَدادَ يَديد» (لسان العرب)، أي طلعت فيه الديدان. وقد قـدم بيلامي تعديلـه انطلاقا من جملة للزمخشري يقـول فيها: «أعزم عليـك أيها الجرح أن لا تزيد ولا تديـد»؛ أي: أطلب منك أو أرجوك أيها الجرح أن لا تتسع وأن لا تفسد فيخرج منك الدود. والتعزيم نوع الترقيـة. وقد لقي تعديل بيلامي قبولا عنـد كثيرين، بل لعله صار أحد أسس قراءة النقش وفهمه.

غيـر أننـا نعتقد أن هـذا الاقتـراح لا يصلح. فكلمة جـرح في النص مرفوعـة من دون شك. فقد كتبت «جرحو». والواو هنا مدّ للضمة. من هنـا لا يجوز كسرها بالإضافة «أدادُ جـرح». وأي قراءة معقولة لهـذه الكلمة يجـب أن تجعلها في موقـع الرفـع، إلا إذا افترضنا أن لغـة النص ليسـت لغة عربية كلاسيكيه. من ناحيـة ثانية، لا يجوز أن يقال في العربية «يددنا» أو «يديدنا» حين يكون المتكلم بشريا. هذا شطط وخـروج عن منطق العربية. فالبشـري لا يديد، بل جرحه هو الـذي يديد. ثم إن شبه جملة «يديدنـا» عنت يتلفنا أو يهلكنا حسب بيلامـي. وهذا أيضا شطط. فلا يمكـن أن تستخرج من جذر «دود» معنـى القتل والهلاك. بذا نعتقـد أن اقتراح بيلامي لا يصلح، ويجب إخراجه من الجدال.

من هو الفاعل؟

وقد افترض الباحثون أن معرفة من يعود إليه الضمير المستتر في الفعل «فيفعل» ستفتح باب فهم النقش. ورأى بعضهم أنه يعود إلى الإله (عبدات) المذكور في النص النبطي. وافترض آخرون أن الضمير يعود إلى صاحب النقش (جرم إلهي)، فهو الذي يفعل. لكن هناك من اعتقد أنه يعود للموت. وبناء على هذه التقديرات قدمت ترجمات مختلفة للنقش. (وبالمناسبة فالاسم الذي يقرأ على أنه (عبدات)، ويشار إليه أحيانا على أنه (عبادو)، يجب أن يقرأ هكذا: عبادة. إنه الإله عبادة، الذي أخذ من اسمة الاسم العربي المعروف: عبادة).

وفيما يلي نماذج من الترجمات والتفسيرات المقدمة للنقش، عدد منها من ترجمات أبو الحب:

نافيه وشاكد:

«ويفعل [جرم إلهي] ليس لمكافأة او تفضيل. وعندما يقصدنا الموت لا تدعه [أيها الإله عبادة] يقصدني. وعندما يصيب مرض أو جرح، لا تدعه يصبنا» (أبو الحب، 2013)

هويلاند:

«لأن [الإله عبادة] يفعل (غير منتظر) مكافأة أو تفضيلا. مع ذلك فالموت قصدنا غالبا، لكنه ردع. ورغم جروحي الكثيرة، لكنه [الإله عبادة] لم يتح لها أن تدمرني». (أبوالحب، المصدر السابق).

بيلامي:

«لأنه [الاله عبادة] يفعل فعله بدون مكافأة وتفضيل، وهو، عندما حاول الموت أن يأخذنا، لم يدعه يأخذنا، إذ عندما تلوث جرح (لنا)، لم يدعه يفنينا» (أبو الحب، المصدر ذاته).

كروب:

«هو [الإله عبادة] لا يجعلنا ضحايا للموت ولا يوقع بنا الجروح. وإن بغانا المـوت فلن يمكنه منا. وإن ساء الجرح فلـن يدع الدود يأكلنا» (Kropp M، 1994، page 171)

أما أبو الحب، وهو العربـي الوحيد الذي درس النقش حسب علمنا، فقد قطع لنا النص كأنه شعر عربي كلاسيكي، ثم فسره كما يلي:

«الموت فعل حتمي، لا يمكن منعه باستئثار أو فدية. فهو يتغينا ويبلغنا جميعـا فـي حياتنا، إلا أنني لا أريده أو ابتغيه مـن هذه الحياة فهو فعل عجيـب، جرح لا يميتنا أو يفنينا حقـا. أو: فهو إيذاء لا غير. جرح لا يميتنـا أو يفنينـا حقا. أو، إذ هو ليس إلا جـرح لا يميتنا أو يفنينا حقا» (أبو الحب، مصدر سابق).

ويمكـن للمرء أن يقـول، بعـد أن يستعرض محاولات قـراءة النقش وتفسيره، أن معنى النص العربي لا يصل إلينا مباشرة، وعبر تفسير بسيط للكلمات، بل يتم الوصول إليه عبـر تفسيرات المفسرين. تفسيراتهم هي التي تعطينا المعنـى لا النص ذاته. بذا فالمعنى هو شغل المفسرين لا معنى النص. وبصيغة أخرى: لقد فرض المعنى على النص فرضا.

وعن محاولته لتقطيع النص قال أبو الحب:

«وبذلك، وحسب بصمي وترجمتي الجديدة للنقش، وقراءتي لكلمة (أدد) بمعنـى (أمـر عَجَـب)، يمكنني تعديـل قراءة بلمـي للسطرين وترتيبهما كبيتي شعر عمودي كالآتي:

«فيفعل لا فِدا ولا أثرا فكـان هُنـا يَبْغِنـا
الموتُ لا أَبْغَهُ من هُنـا أَدَدُ جُرحٌ لا يُرْدِنا» (أبو الحب، مصدر سابق).

لكنه وضع احتمال أن «أدد» قد تكون «أذذّ» أيضا.

إذن، فنحن مع شعر عربي (عمودي)، أي كلاسيكي. لكن للأسف يمكن القول بلا تردد أن النص بهذه الطريقة ليس شعرا عربيا. فهو يفتقر للوزن، كما أنه يكاد يكون بلا معنى تقريبا. وقد حاول الباحث إيهامنا بوجود قافية وروي، عن طريق وضع (يبغنا) تحت (يردنا) و (أثرا) تحت (هنا). غير أن من الصعب على هذا أن يقنع أحدا، للأسف أيضا.

والحال أن صيغة (القصيد) ليست الصيغة الوحيدة التي يمكن التعامل من خلالها مع ما يعتقد أنه شعر عربي حول الميلاد. فقد كان للعرب: «سجعها ورجزها وهزجها وقريضها، ومبسوطها ومقبوضها» (النويري، نهاية الأرب). بل إن بعض المصادر العربية القديمة تعتقد أن التقصيد حلّ متأخرا أصلا.

فوق ذلك، فهناك مخالفات قواعدية عند أبو الحب. فالكلمات: (أبغه) و (يبغنا) مجزومة من دون حرف جزم، ومن دون سبب آخر يقضي بجزمها. عليه، فقد كان يجب أن تكون: «أبغيه» و «يبغينا». وكذلك الأمر مع «يردنا»، فقد كان يجب أن تكون (يريدنا) ما دام لا يوجد ما يوجب الجزم.

على كل حال، فهذا هو الاتجاه العام بالسبة للنص العربي في نقش عين المريفق. أما نحن فنعتقد أن هذا النص نص جنائزي، أي نص ندب ورثاء ما. ونرى أنه مقسوم إلى قطعتين منفصلتين تماما من حيث الشكل والإيقاع:

القطعة الأولى: وهي جملة: «فيفعل لا فدا ولا أثرا».

القطعة الثانية: وهي ما تبقى من النص: «فكن هنا يبغنا الموت لا أبغه. فكن هنا أرد جرح لا يردنا».

القطعة الأولى

قرئت القطعــة الأولى، أو الجملة الأولى فــي النص: «فيفعل لا فداً ولا أثــراً»، مــن قبل الاتجاه الغالب على أنهــا تعني عموما: «فيفعل مــا يفعل من دون انتظار تعويض ولا تفضيل»، مع خلاف حول من هو الفاعل.

ونظــن أن قراءة كلمة «فــدا» بالشكل الذي قرئت به هي التي حكمت معنى القطعة كلها، بل وهي التي أوصلت إلى هذا المعنى المهلهل. إذ افترض أن هذه الكلمة من جذر «فدا» الذي يمد ويقصر: «فدا، فدى». وهــذا الجذر يعطي معاني: الشراء والتعويض والتخليص والفداء. وقد اختيــر من بين هــذا المعاني معنى التعويض كمعنــى للكلمة. وانطلاقا من هذا قرئــت الكلمة التالية «أثر» وفهمت. أي أنه جرى البحث عن طريقــة لقراءتها تتواءم مع قراءة كلمة «فدىً».وقد أدى هذا إلى التقاط معنــى التفضيل والإيثار من بين معاني جــذر «أثر» كي يُعطى للكلمة، بحيث صرنــا مع التعويض والتفضيل. وأنا فــي الحقيقة لا أعرف كي قرئت الكلمــة بالضبط حتى تأخــذ هذا المعنى. فهل قرئــت «إيثارا» أم «آثــر» أم ماذا؟ لســت أدري. لكن بناء على أن الأمــر يتعلق بالإيثار والتفضيــل فقد فسرت الجملة عند الغالبية على هذا النحو: «فيفعل ما يفعل من دون انتظار تعويض أو تفضيل».

غيــر أن قــراءة «أثرا» بهذه الطريقة غير جائــزة وخاطئة. ونعتقد بحزم أنهــا هنا تعنــي العلامة التي يتركها أحد او شــيء خلفه. يقال: لم يترك أثــرا: أي بقية، أو علامة. ويقــال قصصتُ أثره: أي تتبعت ما تركه من علامات وآثار، إلخ. هذا هو المعنى المقصود في الجملة. الكل بالطبع كان يعــرف هذا المعنى، لكن جرى تجنب هذا المعنى الذي يرد على الذهن مباشرة، لأنه لا يتوافق مع القراءة الموضوعة لكلمة «فدا»، التي هــي أيضا قراءة خاطئة بكل تأكيــد. وهكذا، فقد أدت القراءة الخاطئة لكلمة «فدا» إلى قراءة ملتوية وغير مقبولة لكلمة «أثرا».

والحــال أن كلمــة «فــدا» في النص من جــذر «فــدد»، لا من جذر «فدى». وجذر «فـدد» يعني: الصوت، مع اختلاف حول ما إذا كان هــذا الصوت عاليا أم خفيضا: «الفَديدُ: الصوتُ. وقيل: شدته، وقيل: الفَديدُ والفَدْفَدَة صوت كالحفيف. فَدَّ يَفِدُّ فَدّاً وفَديداً وفَدْفَدَ إذا اشتدّ صوَتــه» (لسان العرب). بذا يجب قراءةَ الكلمة بالتشديد: «فَدًّا» كما وردت فــي المقتبس هنا. وانطلاقا من هذا، تقرأ الجملة كلها: «فيفْعَلُ لا فَــدّاً ولا أَثَــراً». والمعنــى: أنه يفعــل ما يفعله مــن دون أن نسمع له فديــدا، أي صوتا، أو نلمس له أثرا. أي يعمل عمله خفية، بغض النظر عمن يكون الفاعل. وهذه جملة عربية معقولة جدا.

ونقول معقولــة ولا نقول متينة لأننا نشعر أن كلمــة «فيفعل» قلقة إلى حد مــا في هذا الموقع. أو قل أنها تبدو لينــة أكثر مما يجب، وحديثة أكثر مما يجب، بالنسبة لنص بهذا القدم، خاصة إذا ما قورنت بالتعبير الرزين المتماسك المتقن، الذي يوحي بعمق الزمن: «لا فَدّاً ولا أَثَراً». بنــاء عليه، نقترح أن خطأ ما حدث في قراءة هذه الكلمة. وإذا صحت هذه الفرضية، فاقتراحنا أنها يجب تقرأ «فيوغل». أي أننا يجب أن تقرأ العين غينا، وهذا أمر شرعي تماما. فالعين النبطية تمثل حرفين عربيين: العيــن والغين معا، إذ ليســ هناك حرف غين فيها. أمــا الفاء الثانية في «فيفعل» فنعتقد أنه تجب قراءتها واواً. والتشابه بين حرفي الفاء والواو فــي الخط النبطي يتيح حصول الخلط بينهما. وإليك نماذج من حرفي الواو والفاء في النقش الذي نحن بصدده:

إلى يميننا كلمة «فيفعل»، وتحتها كلمة «فدا». وإلى يسارنا كلمة «ولا» وتحتهـا كلمة «الموتو». وكما نرى فالواو فـي وسط كلمة «الموتو» تشبه بشدة الفاء في كلمة «فكن». صحيح أن الشكل الأصلي للفاء هو الذي في كلمة «فيفعل»، وهو يملك ذيلا يتجه لليسار مشكلا ما يشبه الزاويـة. لكن، وكمـا نرى، فإن الفاء في كلمـة «فكن» بلا ذيل، وهو مـا يجعلها شبيهة جدا بالـواو، التي لا تملك ذيـلا. فالكتابة اليدوية، وخاصة على الصخر، قد تنحرف بشكل الحرف الأصلي، مما يجعله يقتـرب من شكل حـرف آخر. من أجل هذا صـارت فاء «فكن» مثل «واو» «الموتو».

كذلـك يمكن لشحطـة أحدثها الزمـن أسفل حرف الـواو أن تجعله يظهـر كمـا لو أنها فاء بذيـل. ونظن أن هذا ما حـدث مع حرف الفاء الثانـي في «فيفعل». فقد جعله انحـراف عند نقشه، او شحطة أسفله، يتبدى كحرف فاء، في حين أنه حرف واو. الكلمة إذن في الأصل هي «فيوغل» لكن شيئا ما أدى إلى أن تبدو وكأنها «فيفعل».

ولو صـح فرضنا، فسنكون أمـام جملة عربية متينة جـدا: «فيوغل لا فدّا ولا أثـرا». جملة تعطي إحساسا قويا بالزمن. وجذر «وغل» يعني الاختفـاء والذهاب بعيـدا جدا: «وَغَـلَ في الشيء وُغـولاً: دخل فيه وتـوارى به، وقد خُصَّ ذلك بالشجَر فقيل: وَغَـل الرجل يَغِل وُغولاً ووَغْـلاً أي دخل في الشجـر وتَوارى فيه. ووَغَل: ذهَـب وأَبعَد؛ قال الراعي: قالت سليمى: أتنوي اليوم أم تَغلُ؟/ وقد يُنَسِّيكَ بعض الحاجة العَجَـل، وكذلك أَوْغَل في البلاد ونحوِها. وتوَغَّل في الأَرض: ذهَبَ فأَبعَد فيها» (لسان العرب). كما أن الوغول هو الذهاب مع الاستعجال: «وكلُّ داخلٍ في شيء دُخولَ مستعجلٍ فقد أَوْغَل فيه. قال أَبو زيد: غَلَّ في البلاد وأَوغَل بمعنى واحد: إِذا ذَهَـب فيها. أَوْغَل القومُ وتَوَغَّلوا: إِذا أَمْعَنوا فـي السّير» (لسان العرب). وبناء على هذا، يكون الحديث عن ميت ما. ميت أوغل، أي ذهب مستعجلا، من دون أن يترك وراءه فـي رحلته صوتا يسمع، أو أثـرا يقص ويتبع. وفي هذه الحالة، تحسم

مسألــة الضمير المستتر في «فيفعل». فهو لا يعود إلى الإله عبادة، ولا إلى جرم إلهي، بل يعود إلى الفقيد، فقيد جرم إلهي.

وإذا كان الحديث عن ميت، فإن من المفترض أن يكون النص النبطي نصــا تذكاريا لهذا الميت. وهذا يعنــي أن من المحتمل أن يكون لهذا الميت قبر ما في نقطة قريبة جدا من النقش، الذي حفر على صخرة لا ترتفع كثيرا عن الأرض. وإذا كانت الكلمة «فيوغل» فعلا، أي يذهب مستعجــلا، فإن من المحتمل أن يكــون الميت مات في مقتبل عمره، وقبــل أن يحين الأوان. والحــق أن النص النبطي يكــرر كلمة «ذكير» بمعنى الذكــرى مرتين، وهو ما قد يدعم فرضية أن نقش عين المريفق هو نص جنائزي. نص لميت يطلب أن يجري تذكره.

وبهــذه القــراءة يكون قد حــل اللغز، وتبــدت الجملــة كجملة عربية سليمة، مختصــرة، واثقة من نفسها، جملة تنتمي بلا شك إلى لغة هي ذاتهــا الشعــر الجاهلي والقرآن. وهذا ما سيرغمنــا على التعامل مع ما تبقى مــن النص على أنه نص عربي متماسك فصيح. أي سيرغمنا على عدم قبول أي قراءة تظهره كنص هش متهافت. ويمكن لي أن أقول ان وضع هذه الجملة داخل النص يشبه وضع جملة «فلم يبلغ ملك مبلغه» فــي نقش النّمارة، التي كانــت الدليل الأكبر على أننــا مع نص عربي، متين، شبيه بالنصوص القرآنية.

أكثر من هذا، فإن هذه القراءة تظهر الوزن في الجملة وتوضحه بشكل بيّــن لا لبس فيــه. فهي تبدو بوضوح كشطر من بيــت شعر على البحر الطويل الشهير (فعول، مفاعيلن، فعول، مفا).

وبذا نكون قد حصلنا، في ما يبدو، على وثيقة تحمل شطر بيت شعري عربي يعود إلى نهاية القرن الأول الميلادي أو في زمن قريب من ذلك. وهــو ما يؤكد أن الشعــر العربي كان، وقبل قرون مــن الإسلام، شعرا منتظما موزونا على الأوزان نفسها التي عرفناها بعيد الإسلام، أو على الأقل على بعض هذه الأوزان.

لكن هذا لا يعني بالطبع أن ما تبقى من النص يجب أن يكون شعرا. فقد يكــون (جرم إلهي) قد اقتبس شطرة واحدة من بيت شعري، ثم أكمل بلغته الخاصة، أو أتى بمقتبسات أخرى. نحن لا ندري بيقين. إذ علينا أن نقــرأ ما تبقى من النص قراءة معقولة، أي قراءة عربية متماسكة، قبل أن نقرر إن كان كلاما منظوما أو منثورا.

الفاء

وقــد تساءل بعض من تعرض للنقش: لكن لــمَ يبدأ النص العربي بالفاء الاستئنافية؟ وهل هو يستأنف بذلك كلام النص النبطي أم ماذا؟ وهناك من افترض أن كاتب النقش انتقل إلى لغته العربية بعد أن وجد أن مفرداته النبطيــة- الآراميــة لا تسعفه لإكمال النص، والفــاء تعبير عن استئناف النصــ ذاته لكن بالعربية. وهذا في الحقيقة فرض غريب حقا. فإذا كنا مــع نص شعري عربي، كما افترضت الغالبيــة منذ البدء، فإن المنطقي أن نفترضــ أن (جرم إلهي) العربي سيكتبهما بالعربية لا بالنبطية. ذلك أنه لو عمد إلى ترجمتهما إلــى النبطية- الآرامية لفقد الشعر وزنه، بل وفقــد معناه حتى عند جرم إلهي. هذا هــو التفسير الأكثر منطقية. بناء عليــه، فقد كان الانتقــال إلى العربية في السطر الرابــع إجباريا إذا كان الرجــل يريد أن يثبت مــا في رأسه داخل النص. ومــن حسن حظنا أنه أصر علــى تثبيته. فقد وفر لنا فرصة للحصــول على أقدم وثيقة تحمل شطــرا مكتوبا مــن الشعر العربي. أما الفاء فلا بــد أنها كانت تمثل في الأصــل استئنافا لكلام سابق في القصيــدة أو الأبيات التي اقتبس منها (جرم إلهي) الشطر الذي نحن بصدده.

القطعة الثانية

نمضــي الآن إلى القطعــة الثانية، التــي نقسمها إلى قسميــن، لكنهما قسمان مترابطان، يمثلان معا أهزوجة جنائزية في اعتقادنا. أما القسم الأول؛ فقــد قرئ عند الغالبية الساحقة مــع إضافة الحركات على هذا النحو:

«فكان هنا يغينا الموت لا أبغيه»، أي بمعنى: يطلبنا الموت ولا أطلبه.

ورغم أن قراءة الكلمتين «يغينا» و»أبغيه» بالغين قراءة ممكنة، فنحن نرى أن الاحتمال الأقوى والأفضل هو قراءتهما بالعين لا بالغين: «يبعينا الموت لا أبعاه». أي أنهما من جذر «بعى، بعو» لا من جذر «بغى» بمعنى طلب. وجذر «بعى، بعو» يعني أخذ الشيء خديعة: «بعوته بعوا: أصبت منه وقمرته» (ابن فارس، مقييس اللغة). أو هو الجرم والجناية. يقال: «بعوت بعوا، وبعيت، جميعا: اجترمت. وأبعى قومه للعدو: عرضهم للهلاك» (الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة). يضيف اللسان: «البَعْو: الجناية والجرم. وقد بعا: إذا جنى. يقال: بَعا يَبْعُو ويَبْعَى. وبَعَى الذَّنْبَ يَبْعاه ويَبْعُوه بَعْواً: اجْترَمه واكتسبه... وقال ابن سيده في ترجمة بعي بالياء: بَعَيْت أَبْعِي مثل اجْتَرَمْتُ وجَنَيْتُ» (لسان العرب). بالتالي، يجوز لنا أن نقول: يبعونا، يبعينا، أو يبعينا، بالمعنى ذاته. ويبدو أن النص يستخدم الفعل مرة بالياء ومرة بالألف.

إذن، فالكلمات الأربع «يبعينا الموت لا أبعاه»، وهي تعني: (يجني علينا الموت لا جني عليه)، أو (أهلكنا الموت، لا أهلكه). شكل الصيغة خبري، لكنها في الحقيقة دعاء. فالحرف (لا) أداة دعاء لا حرف نفي. يعني: فليهلكنا الموت ولايهلكه. أي ندعو أن يصيبنا الموت وأن لا يصيبه.

وهكذا، وبمجرد أن فسرنا الكلمات تفسيرا بسيطا ومباشرا، أصبحت الجملة واضحة جدا.

تتبقى كلمة «فكن» في جملة: «فكن هنا». وقد قرئت عند الجميع على أنها (فكان هنا). واقتراحنا أن الكلمة يجب أن تظل كما هي، أي من دون زيادة الألف وتحويلها إلى «فكان». فنحن نفترض أنها من جذر «كنن»، الذي يعطي معنى الاستتار والاختفاء والسكن: «كَنَنْتُ الشيءَ: سَتَرْتُه، وأَكْنَنْتُه في صدري. واحتجّوا بقوله جلّ وعزْ:

« كأَنَهُــن بَيْض مَكْنــو ن»، وبقوله: «ما تُكــن صُدُورُهُم» ... والكُنَّة: مخْــدَ ع أو رَف في البيت، والجمع كنَــنَ» (ابن دريد، جمهرة اللغة). يَضيف اللسان: «الكِنُّ والكِنَّةُ والكِنَانُ: وِقاء كل شيء وستْرُه. والكِنُّ: البيت أيضاً، والجمعَ أكْنــانٌ وأكنةٌ... وفي التنزيل العزيز: وجعَلَ لَكم مــن الجبالِ أكْناناً... وكَنَّ الشيءَ يَكُنُّه كَنّاً وكُنوناً وأَكَنَّه وكَنَّنَه: ستره» (لسان العرب).

بناء عليه، يجب قراءة الكلمة بفتح الفاء والكاف وتشديد النون: «فَكَنّ هنــا» بمعنى: استتر واختفــي، أو بمعنِى: سكن وقَرّ. أي على أنها فعل ماض. وهكذا فالجملة كلها تقرأ» (فكَنَّ هنا: يبعينا الموت، لا أبعاه).

الترنيمة الثانية

وبعد أن قرأنا القسم الأول من الأهزوجة تصبح قراءة القسم الثاني أمرا سهلا جدا. تقول جملتها:

«فكن هنا: أرد جرحو لا يردنا».

وتكرار جملة «فكن هنا» مــرة ثانية يؤكد أنها لازمة يجري تكرارها، وهو ما يؤكد أننا في الواقع مع طراز من الترنيم والغناء. أما كلمة (أرد) فنقترح أنها في الأصل (أرده) بالهاء، وان جرم إلهي أسقط سهوا حرف الهاء منها فصارت (أرد) وهو ما أدى إلى أن يتشوش الباحثون تشويشا تامــا بخصوص النص ومعناه. بذا فالكلمة فــي الأصل: «أرده»، ومع إضافــة الحركة الطويلة فهي تقــرأ: «أرداه». عليه، فالجملة كلها تقرأ: «فكَنَّ هنا: أرداه جرح لا يردينا». والمعنى واضح تماما حتى من دون شرح. فالقسم الأول من الأهزوجة السابقة يتمنى لو أن الموت أصاب الهازجيــن، ولــم يصب الميــت. أي أن المعنــى: «ليصبنا الموت ولا يصبــه» لكن الذي حصل هو العكس. فقد أرداه جرح، أي أن الموت اخترمه. بذا فالدعاء أن لا يردي الجرح الآخرين وأن لا يخترمهم مثله (أرداه الجرح، فليته لا يردينا).

والآن، نعتقـد أن هاتيـن الترنيمتين تنشدهمـا مجموعتان. مجموعة تغنـي اللازمة، ومجموعـة أخرى تغني الـرد، إذا أخذنا بمصطلحات شعـر الموشحات الأندلسية. كما نعتقد أن فتحة الفاء في كلمة (فكن) تمد لتصبح ألفا عند الأداء (فاكَنّ):

مجموعة 1: فاكَنّ هنا

مجموعة 2: يبعينا الموت لا أبعاه

مجموعة 1: فاكَنّ هنا

مجموعة 2: أرداه جرح، لا يردينا

لكن من المحتمل جـدا أن اللازمة كانت تكرر (فاكَنّ هنا، فاكَنّ هنا) كي يتم الإمساك بالإيقاع وترسيخه:

فاكَنّ هنا ، فاكَنّ هنا

يبعينا الموت لا أبعاه

فاكَنّ هنا ، فاكَنّ هنا

أرداه جرح لا يردينا

ثـم تتابـع الترنيمات كما نظـن. أي أن ما قدمه لنا جـرم إلهي إنما هو مقطـع فقط من أهزوجة ندب وعزاء تنشد جماعيا. ولعل الحديث عن جـرح، يوحي بـأن الميت مات مقتولا في حـرب و نزاع، ولم يمت موتا طبيعيا.

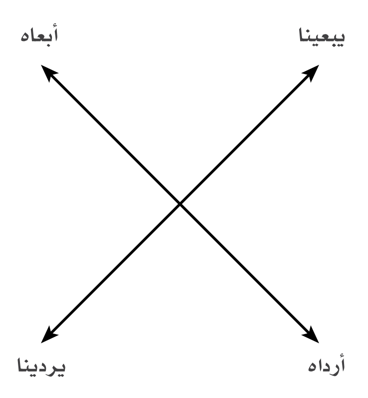
تناظر

بنـاء على ما سبق، يمكن ملاحظة أن الترنيمتين الثانية والثالثة بنيتا على التناظر:

يبعينا في مقابل يردينا

أبعاه في مقابل أرداه

ويمكن تصوير هذا التناظر بالشكل أدناه:



وهذا التناظر هو الذي أقنعنا أن هاء سقطت من آخر كلمة (أرد). فلدينا ضمير جماعة (نا) في مقابله ضمير جماعة (نا). بذا يفترض أن يكون لدينا ضمير غائب في مقابل ضمير الغائب، أي يفترض أن نضيف (الهاء) إلى (أردى). فإضافة الهاء تجعل التناظر واضحا وأكيدا، إضافة إلى أنها تحل لنا لغز المعنى، وتبعدنا عن مقترح بيلامي: (داد و يديد).

والتناظر هنا معكوس مقلوب. فناء الجماعة في الترنيمة الأولى تقع في البداية، لكنها تأتي في النهاية في الترنيمة الثانية. أما الضمير المفرد فيأتي أخيرا في الترنيمة الأولى، ثم يصير أولا في الترنيمة الثانيه. ولو لم يجر القلب لكنا على الشكل التالي:

يبعينا الموت لا أبعاه

يردينا جرح لا أرداه

غير أن القلب ليس مكانيا فقط، بل هو معنوي. وهو قلب يجري عبر (لا) الدعائية. إذ أن يبعينا في الترنيمة الأولى = يردينا في الترنيمة الثانية. لكن يتم قلب المعنى عبر لا: (لا يردينا). كما أن أرداه = أبعاه.

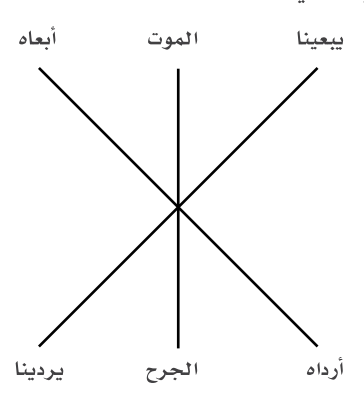
لكــن يجري قلب المعنى بلا الدعائية (لا أبعاه). بذا يمكن تسمية هذا النمط من الغناء الجنائزي باسم (المقلوب).

انطلاقا من هذا، فلدينا ثلاثة حدود فقط في الترنيمتين:

1. المــوت– الجــرح: وهما يشــكلان معا الحد الأوســط، ويعنيان الشــيء ذاته: الموت. فالجرح هو الذي يؤدي للموت. هو الذي يردي ويقتل. أي هو الموت.

2. الكلمــة الأولــى في الترنيمــة الأولى تساوي الكلمــة الأخيرة في الترنيمــة الثانية: يبعينــا = يردينا. وهما معا يعنيــان: يقتلنا. فيبعينا تعني: يرتكب جريمة بحقنــا. ويردينا تعني: يقتلنا. وهو ما يؤكد صحة قراءتنا لكلمة «يبعينــا» بالعين لا بالغين. لكن تجري عملية قلب المعنى عبر كلمة (لا) الدعائية. بالتالي، فالكلمتان شيء حد واحد. إنهما الحد الطرفي الأول.

3. كما أن الكلمة الأولى فــي الترنيمة الثانية تساوي الكلمة الأخيرة فــي الترنيمــة الأولى: أبعــاه = أرداه. فكلاهما يعنــي: قتله. لكن المعنــى يقلب عبــر لا الدعائية: (لا أبعاه). وهتــان الكلمتان هما الحد الطرفي الثاني.



وهكذا فلدينا ست كلمات كل اثنتين منهما تتساويان في المعنى:

أبعاه = أرداه

يبعينا = يردينا

الموت = الجرح

أي أننا في الحقيقة مع ثلاث كلمات من حيث المعنى لا ست، كل كلمتين لهما المعنى نفسه. أي أنهما لفظان للمعنى ذاته. بذا فثلاث كلمات هي التي خلقت أهزوجة الموت الحزينة هذه، في نهاية المطاف.

النتيجة إذن، أننا مع غناء جنائزي موقّع، يقوم على التناظر والقلب، أو على التناظر المقلوب. وفي هذا الغناء شبه ما ببعض أنواع الغناء الشعبي العربي الحالي الذي يعتمد على الرد والقلب، مثل (المردود) الشامي، الذي غنت منه فيروز:

دفّ وكفّ وردّادين

ورداين ودفّ وكفّ

وكفّين ودفّ وردّاد

مع فارق أنه هنا غناء راقص فرح، لا حزين معتم. والحقيقة أن كلمة المردود تعني المقلوب بشكل ما. فرد الشيء هو أعادته وعكس اتجاهه. والترنيمة تقوم على جملة تعكس أخرى وتردها.

ويبدو لنا أن الترنيمة مصوغة على مخلع البسيط. وهي ترنيمة ندب ورثاء جماعي مختلف بشدة عن شعر المراثي الجاهلي الذي عرفناه. كما أنه مختلف عن نياحات النساء. ولسنا نعرف اسم هذا الغناء. لكن هناك نوعا من الغناء يسمى الهزج، استخدم أحيانا في الندب في الفترات الإسلامية، رغم أنه يقال لنا أنه بحر فرح لا بحر حزن، كما يدل اسمه. إذ لما حضرت معاوية الوفاة ندب بالهزج: «وفي غير هذا الإسناد أنه قال حين احتضر لابنة قرظة: اندبيني، فقالت الهزج: ألا أبكيه ألا أبكيه/ ألا كلّ الفتى فيه» (المبرد، التعازي والمراثي).

وهــذا هزج يبدو قريبا من مزاج المرثية فــي نقش عين المريفق. وقال ذو الإصبع العدواني، الشاعر الجاهلي:

هزجـت أنيلة أن رأت هـرمي
وأن انحـنـى لـتـقــادم ظهـري

ويبدو أن هزيج أنيلة هنا كان نوعا من الندب الذي يتنبأ بالموت.

وهنــاك من يخبرنا ان الهزج لغويا هــو الترنيم: «الهَزَج: مَدُّك الصوتَ في الترنّم» (الخليل بن أحمد، العين). و «وفي الحديث: أَدبر الشيطان وله هَزَج» (لسان العرب).

أمــا الرجز فكان في الغالب خاصا بالحروب والمنازعات، ويستخدم للتحريض عليها.

وهناك نوع محدد من الغناء يدعى التناعي أيضا: «وقد كان الجاهليون يستغلون نعي القتلى للتحريض على القتال والأخذ بالثأر، ويقال لذلك: (التناعي) وقد نهى الإسلام عن (نعي الجاهلية)، وذلك لما كانوا يبالغون من النداء بمــوت الشخص وذكر مآثــره ومفاخره ورثائه رثاء يتجاوز الحــد» (جواد علــي، المفصل). لكن نص عيــن المريفق لا يبدو نصا يهــدف إلى التحريض على الحــرب. فالمواجهة فيــه للموت مطلقا، وليس لعدو بشري.

السطر الأخير

يتبقى لدينا السطر الأخير، الذي هو توقيع الكاتب، وهو يقول: «جرم إلهي كتب يده»

وقد ذكرنــا أن هناك من هو مقتنع أن هذا السطــر كتب بالعربية، لكن هنــاك من يتشكك في ذلك، ويــرى أنه نبطي. لكن من يقول أنه عربي يضيــف باء ثانية: «كتــب بيده»، مفترضا أن هــذه الباء سقطت لسبب

مــا. والحق أنــه لا ضرورة لإضافة البــاء في ما لــو كان السطر عربيا. إذ مــن الممكن قراءة الجملة هكذا: «جــرم إلهي»: كتاب يده). وهو يعنــي كتابة يده، أو خــط يده، لا كتابة غيره. وقــد وردت في النقوش العربيــة بعد الإسلام كلمة (كتاب) بــدل (كتب) مرات عديدة. عليه، فمن المحتمل جدا أن يكون السطر عربيا.

هذا يعنــي أن القسم الرسمي في النقش، الــذي يشمل السطور الثلاثة الأولى، كتب بالنبطية. أما القسم غير الرسمي فقد كتب بالعربية. وهو يتكــون من مقتبسات من المأثور الجنائــزي والرثائي العربي الشعبي، إضافة إلى التوقيع. بالتالــي، فالقسم الأول هو تأليف جرم إلهي، لكنه كتبــه متبعا الصيغ السائدة في ذلــك الوقت. أما القسم الثاني فليس من تأليفه. إنه مجرد اقتباس.

هــذا التفريق بيــن الصيغتين حاسم جــدا. فهو الذي يمكننــا من قراءة الجمــل المكتوبة بالعربية علــى أنها (تراث) نقله إلينــا جرم إلهي عبر نقش عين المريفق (عين عبادة).

خلاصة

وبعــد أن فككنــا ألغــاز النقشــ العربي الأقــدم، نقش عيــن المريفق، يمكــن الحكــم بأنه سيكــون ذا أهمية كبرى في فهمنــا لتاريخ العربية وتطورها. فبعده لن يعود بإمكان أحد أن يحدثنا عن عمق زمني ضئيل للغــة العربية. فها هي هذه اللغة تعرض لنــا نفسها، وقبل 500 عام من الإســلام، باعتبارها لغة تشابه لغة الشعر الجاهلــي ولغة القرآن. وهذا يعنــي أنهــا كانت لغة مقعّدة منــذ وقت طويل قبل نقشــ عين المريفق ذاتــه. فلا يمكن لهذا النقشــ أن ينبثق هكذا فجأة بلا مقدمات. يجب أن تكــون وراءه قــرون من التطــور اللغوي. وكل هــذا يفسر لنا كيف انبثقت لغة القرآن بتعقدها ومتانتها.

كمــا أنه لــن يكون بالإمــكان الآن الجــدال بخصوص تاريــخ الشعر

الجاهلـي على النحو الذي كان سائـدا في بداية القرن العشرين. وهذا يعني أن نقش عين المريفق فرض تجاوز كتاب طه حسين حول الشعر الجاهلـي. فبه أمسكنا، ولأول مرة، بوثيقـة مكتوبة تحمل شطر بيت شعـري يسبق بـ 500 سنة آخر أيام العصر الجاهلـي. وهو ما يعني أن الشعر الجاهلي كان شعرا منظما منذ هذه الفترة المبكرة.

وفوق هـذا كله، فإن العثور على هذا النقش العربي المتين في النقب بفلسطيـن، يؤكد أن عربيـة الشعر الجاهلي، وعربيـة القرآن، لم تكن (لغـة محليـة) انبثقت فـي الحجاز، أو بعض مناطقه، بـل كانت لغة ذات حـدود جغرافية واسعة، وأنها كانت لغة واحدة رغم اتساع هذه الحـدود. فطبيعتها واحـدة سواء تعلق الأمر بيثـرب أو مكة أو بمدينة عبادة في نقب فلسطين.

وكل هـذا ينبئ أن باطن الأرض مـا زال يحوي نصوصا عربية أخرى، تنتظر من يزيح عنها التراب، كي يظهرها لنا.

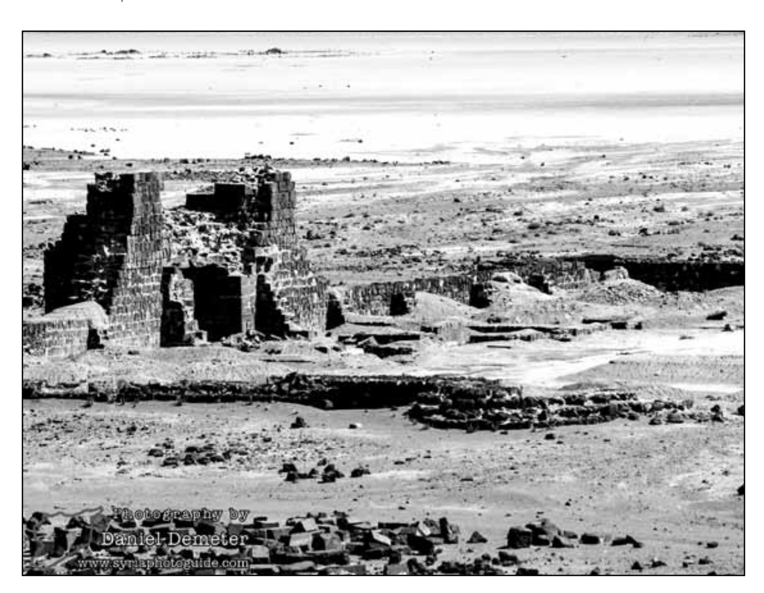
مصادر الفصل الثاني

- ابن منظور، لسان العرب
- سعـد الديـن أبو الحب، أقدم نص لشعر عربي فصيـح مدون: قراءة في نقش عين عبدات النبطي، حقوق النشر للمؤلف، 2013
- ابن دريد، جمهرة اللغة، نسخة إلكترونية من: www.alwaraq.net
- ابن فارس، مقاييس اللغة، نسخة إلكترونية من: www.alwaraq.net
- المبرد، التعازي والمراثي، نسخة إلكترونية من: www.alwaraq.net
- الخليل بن أحمد، العين
- جـواد علـي، المفصلفي تاريخ العرب قبـل الإسلام، نسخـة إلكترونية من: www.alwaraq.net

- Bellamy, James A, A New Reading of the Namārah Inscription, Author(s): Source: Journal of the American Oriental Society, Vol. 105, No. 1 (Jan. - Mar., 1985), pp. 31-51, American Oriental Society
- E. A. KNAUF,«Arabo-Aramaic and «Arabiyya. From Ancient Arabic to Early
- Standard Arabic, 200 CE–600 CE, in A. NEUWIRTH, N. SINAI, and M. MARX (ed.), The
- Qurān in Context. Historical and Literary Investigations into Qurānic Milieu, Leiden 2010
- Kropp, Manfred, A Puzzel of Old Arabic Tenses ad Syntax: The Inscription of ‘En ‘Avdat Author(s): Source: Proceedings of the Seminar for Arabian Studies, Vol. 24, Proceedings of the TwentySeventh SEMINAR FOR ARABIAN STUDIES held at London on 22-24 July 1993 (1994), pp. 165-174, ArchaeopressStable

نقش جبل أُسيس

عثـر على هذا النقش في العام 1964، في (جبـل أُسيس) الذي يدعى اليـوم باسم (جبل سيسـ)، على مبعدة 105 شـرق– جنوب دمشق. والجبل قمة بركانية تتناثر عند أقدامها آثار من عصور مختلفة، أشهرها مبنـى من عهد الوليد بن بد الملك. وقـد ورد اسم أسيس أكثر من مرة في النقوش الصفائيـة. فمنطقته غنية بالمياه مقارنـة بالمنطقة حولها، مما جعلها محط أنظار البدو الذين يردون ماءه لري أغنامهم.



عند أقدام جبل أُسيس، أثار المبنى الذي ينسب للوليد بن عبد الملك

وقــد نشر محمــد فرج أبو العشــ أول منسوخة يدوية عــن النقش في جريدة (البعث) البيروتية عام 1964، وأدناه صورة عنها.

١ — ابراهيم بن مغيرة الاوسي .
٢ — أرسلني الحرث الملك على
٣ — سليمن مسلّحه؟سنت (كذا)
٤ — ..... ؟ ومائة ؟

صورة منسوخة أبو العش، وقراءته لها مطبوعة بالعربية
الصورة من: Larcher Pierre

وكمــا نرى في الصورة أعــلاه، فقد قرأ أبو العش النقش كله إلا السطر الأخير، وهو الذي يحوي على التاريخ. لكنه وضع علامة استفهام بعد كلمــة (مسلحة) كي يبين لنا أن قراءتها غير مؤكدة. وقد أكمل أدولف جروهمان قراءة السطر الأخير الذي يحمل التاريخ، فصار نص النقش كالتالي:

1. إبرهيم بن مغيرة الأوسي
2. أرسلني الحرث الملك على
3. سليمن مسلحة سنت
4. 432

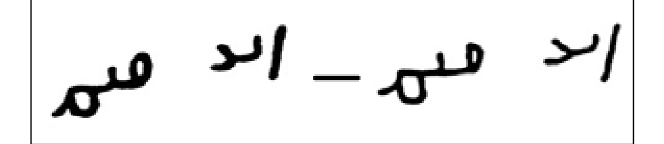
وبإضافة السنوات منذ سقوط بصرى، وهي 105–106 سنوات، إلى السنــوات 432 يصبح توقيت النص 528م. بــذا فهو أول نقش عربي مــن قبل الإسلام موقــت بدقة. فهو يذكر التاريــخ، ويذكر اسم الملك الــذي كتب النقش في عهده، الذي يعتقد أنه الملك الغساني الحارث الثالث.

وقد أريق حبر كثير في النقاش حول (سليمان) في النقش طوال عقود. فمن هــو سليمان هــذا؟ وما معنــى أن يرسل الملك الحــارث الرجل

مسلحــة عليه؟ وقــد اقترح عرفان شهيــد أن سليمان هــذا ربما يكون متمردا من المتمردين، أو اسم موقع عسكري لا اسم شخص محدد.

غيــر أن النقاشــ حول سليمان هذا أخمد عــام 2002، أي بعد أربعين سنة تقريبا على اكتشاف النقشـ. فانطلاقا من صور حديثة للنقش قرأ كل من روبين وغوريا Christian Robin and Maria Gorea (أسيس) بدل (سليمــان)، أي أن النقش يتحدث عن المنطقة التي عثر عليه منقوشا على صخورها. وقد قبلت هذه القراءة عموما، ومن دون تحفظــات تقريبا. وبناء على هذه القــراءة يكون أبو العش وجروهمان قــد استبعدا الحرف الأول مــن كلمة (أسيس) لأنهمــا رأيا فيه شحطة مــا ليست من ضمن الكلمة. وهكــذا بدأت قراءتهما بحرف السين لا بحرف الألف (سليمن) لا (أسيس). وسوف نناقش أمر هذه الشحطة المهمة لاحقا.

أمــا بخصوص اسم الرجل صاحب النقش فقــد قرأه كل من أبو العش وجروهمان على أنــه (إبرهيم) أي (إبراهيــم). وأدناه رسم كل منهما للاسم:



رسم كل من أبو العش وجروهمان للاسم: إبرهيم

وقــد ظلت هذه القراءة سائدة حتى جاء روبين وغوريا أيضا فقرءا الاسم علــى أنه جملة تامة مكونة مــن كلمتين: (أنه قثــم)، أي (أنا قثم). ومن الواضــح أن الفــراغ الــذي يفصل بين قسمــي كلمة إبراهيــم هو الذي قادهما إلــى هذه القراءة. ويمكننا ملاحظة الفراغ بوضوح في رسم أبو العشــ وجروهمان. لكنهما عدّلا القراءة لاحقا إلى (أنه رقيم). بالتالي، فقــد أزاحا (إبراهيم) كما أزاحا (سليمــان) قبل ذلك. وكان ماكدونالد

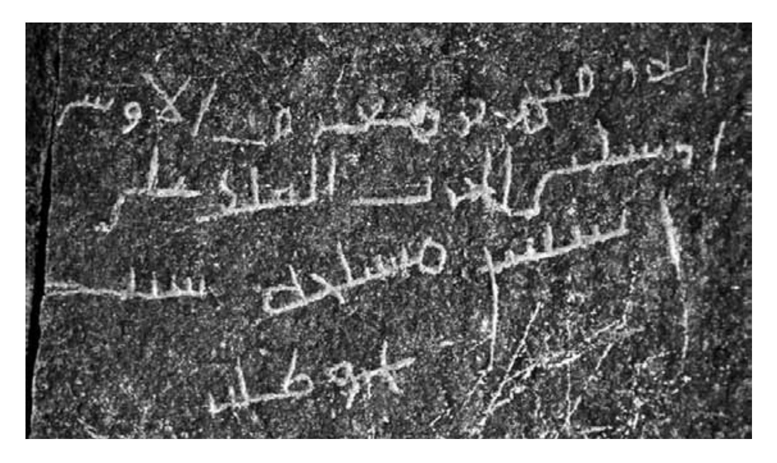
M.C.A. Macdonald قد توصل قبلهما في ما يبدو، وبشكل منفصل، إلى أن الاسم هو (رقيم) أيضا. لكنه لم يكن قد قرأ (أنه) مثلهما.

بذا فقراءة روبين وغوريا لاسم الرجل واسم أبيه هكذا: «أنه رقيم بن مغيرة»، على اعتبار أن (أنه) لهجة طائية في (أنا). أما ماكدونالد فقد قرأ اسم الأب على أنه «معيرف». هذا هو الجديد بخصوص الاسم.

وسوف نبدأ بنقاش اسم الرجل لكن بعد أن نتحدث عن مصادفة غريبة في هذا النقش.

المصادفة الغريبة

ونريد من القارئ أن يلقي معنا ببصره على صورة حديثة للنقش أدناه كي يتمعن بالمصادفة الغربية التي أشرنا إليها. فهي مصادفة ربما فتحت لنا طريقا آخر لقراءة النقش، وأوصلتنا إلى غير المتوقع.



صورة حديثة للنقش من ماكدونالد

Photograph by: M.C.A. Macdonald، 2006

أما المصادفة الغرية، فتتمثل في أن أول كلمة في كل سطر من السطور الثلاثة الأولى للنقش تبدأ بالحرف ألف: (أنه) و (أرسلني) و (أسيس).

وهــي مصادفــة غريبة، لكنهــا ممكنة. لكن مــا يثير الشــك، ويطرح احتمــال أن الأمــر أبعد من أن يكون مصادفة، هــو وجود ألف أخرى في بداية السطر الرابع، الذي لا يتكون من كلمات، بل من رموز تمثل أرقاما هي تاريخ النقش. ويمكن للعين أن ترى الشحطة العمودية التي تقع تحــت (ألف) كلمة (أسيس) تماما، بــل وتتصل بها حتى. وجود هــذه الشحطة في السطــر الرابع برهان حاسم علــى أن الأمر لا يتعلق بحــروف، بل بعلامات تحديــد لبدايات السطور. فلــو أن الأمر تعلق بحروف لما كان الكاتــب بحاجة إلى الشحطة في السطر الأخير.بذا فالأمــر لا يتعلق بحرف (ألف) يبــدأ به كل سطر من سطور النقش، بل مع شحطات هدفها تحديد بدايات الأسطر لا أكثر. ولسنا ندري بيقين إن كانــت هــذه الشحطات قــد وضعت في بداية كل سطــر قبل كتابة كل سطــر، أم أنها وضعت معــا وبالتتابع بعد إنجاز النص كله. لكن ما هــو مؤكد تقريبا أنها ليســت حروفا، وأنها وضعت كي تحدد بدايات النص، ولتعطي انطباعا باللم وعدم الفلتان.

بنــاء على ذلك، يجب إزالة حرف الألــف من الكلمات الثلاث: (أنه، أرسلنــي، أسيس). وهذا يعني أن الكلمــات يجب أن تقرأ هكذا: (نه) و(رسلنــي) و(سيســ). وسوف نشــرح معنى هــذه الكلمات واحدة واحدة وبالترتيب.

اسم صاحب النقش

وإذا أبعدنــا الألف من الحــروف يتبقى من قراءة مــن روبين وغوريا: (نــه رقيم). أما مــا يتبقى من قراءة أبــو العش بعد إزاحــة الألف فهو: (برهيــم). فهو قد تجاهل حرف الراء الذي ثبته كل من غوريا– روبين وماكدونالــد، أو لــم ينتبه لــه. بالتالي فقد كان على قراءتــه أن تكون: (بررهيم).

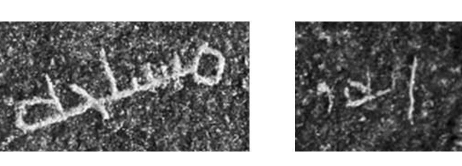


والحـال أن قراءتنا ستكون أقرب إلى قـراءة أبو العش، لكن مع إضافة الحرف الذي لم ينتبه إليه، او تجاهله، لأن وجوده يضرب قراءته ربما. ونحـن نستطيع أن نقرأ (بر) عند أبو العش علـى أنها (تد). فليس ثمة فـارق كبير بيـن الباء والتاء قبل التنقيط. كما أن الـراء والدال يتشابهان بشدة. بالتالي فالكلمة كلها ستكون (تدرهيم).

لكننـا نرى أن هناك احتمالا جديا لأن يكون حرف الياء في الواقع هاء ثانيـة، تلف رأسها، ولم يبق منه إلا جـزء يشبه سن الياء، فقرئ ياء. أي أننا مع (تدرههم) لا مع (تدرهيم).

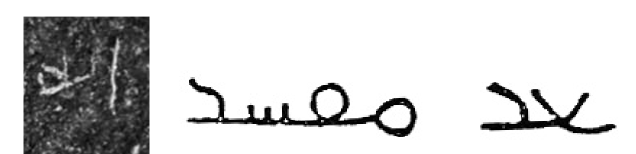
وإذا صحـت قراءتنا هذه، تكون قراءة أبـو العش للاسم أكثر القراءات قربا مـن القراءة الصحيحة– رغم أن رسم روبيـن– غوريا للاسم كان أكثر دقة من رسمه. بذا يجب أن نرفع قبعتنا لأبو العش، ليس فقط على اكتشافـه للنقش، بل وعلى قراءته لاسم صاحب النقش بقدر لا بأس به من الدقة.

أمـا قراءة روبين وغوريا للاسم فقـد سقطت مع سقوط الألف من أول السطر. فقد تبقى عندهمـا بعد سقوطها (نه) بدل (أنه)، وهذا لا ينفع لتكويـن اسم له معنـى. الأهم من ذلك أنهما لفقا حـرف الهاء تلفيقا، وعلـى الشكل كالتالـي: فبعد أن قرءا التاء على أنهـا نون، أخذا الجزء الأخيـر من التاء، أي القطعة التي تشبه ألفا صغيرة في آخره، ثم أضافاه إلـى حرف الدال، وقرءا الناتج على أنـه حرف هاء، مفترضين أن هذه الهاء الملفقـة من حرفين تشبه الهاء في كلمة (مسلحة). وإليك صورة كلمة (مسلحة) وصورة كلمة (أنه) المفترضة معا.



وكما نـرى في الصورة أعلاه، فـإن الهاء في (مسلحـه) مقفلة تماما، فـي حين أنها في (أنه) المفترضة مفتوحة بوضوح. وهذا فرق حاسم. كذلك فإن هاء مسلحة مستطيلة في حين أن الحرف الذي نتحدث عنه يميل إلى التدوير. وفوق هذا كله، يبدو لنا أن هاء مسلحة منفذة بضربة واحدة، في حين يبدو الحرف المقصود منفذ عبر أكثر من ضربة. بناء علـى كل هذا، فنحن نحكم بأن هـذا الحرف ليس حرف هاء. أي أنه لا توجد (نه) في النقش.

أمـا نحن، وكما قلنا أعلاه، فقد قرأنا، بعد أن رمينا حرف الألف، (نه) على أنهـا (تد). أي أن حرف الهاء المفترض هو حرف دال. وقارن صـورة حـرف الدال بصورته فـي كلمتي (بعـد) و (مفسد) من نقش (حران اللجاة) أدناه.



الفارق هـو أن قاعدة الـدال– الذال هنا تنعقف نحـو الأعلى مشكلة قطعة صغيرة تقف في فم الحرف. وحرف الدال ما زال يكتب عندنا، فـي الخـط اليدوي، حتـى الآن بهـذه الطريقة أحيانـا. أي عبر عقف قاعدته نحو الأعلى.

على كل حال فنحن، وبناء على قراءتنا، مع (تدرههم) في غالب الظن، أو مع (تدرهيم) في أقله. وفي الحالين نحن مع اسم غريب، بل وغريب جدا. ونحن نقـر بهذه الغرابة. لكن هذا ما تقوله لنا الحروف. وعلينا نحن أن نفهم معنى هذا الاسم الغريب، وأن نحاول تأصيله.

تُدْرَهُهُم

كيف لنا، إذن، أن نمسك بهذا الاسم الغريب، الذي قد يبدو للقارئ العربية الحديث اسما سنسكريتيا؟ وأنى لنا أن نحدد معناه؟

نعتقد أن هذا الاسم من جذر (دَرِهَ). وهو جذر ذوى، وأميت فعله، كما تقول القواميس العربية، ولم يبق تحته الكثير من الاشتقاقات: «قال الليث: أميت فعله، إلا قولهم: رجل مِدْرَهُ حرب. ومِدْرَهُ القوم: هو الدافع عنهم. وقال غيره: مدره القوم: زعيمهم، وخطيبهم، والمتكلم عنهم، والدافع عنهم، والجمع مداره» (الزبيدي، تاج العروس). يضيف بن عباد: «الدَّرَهُ: أُميْتَ فعْلُه إلاّ قَوْلهم: مِدْرَهُ حَرْب، ومِدْرَهُ القَوْم: وهو الدّافِعُ عنهم الرَّئيسُ فيهم» (الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة). يزيد البغدادي: «والمدره: زعيم القوم والمتكلم عنهم» (البغدادي، خزانة الأدب).

إذن، فهذا جذر يفيد معنى القيادة الحربية، والزعامة بشكل عام. لذا فالاشتقاق الأساسي فيه هو (مدره). وحين يوصف شخص بأنه محارب شديد يقال: مدره حرب أو ذو تدره حرب. أما حين يوصف أحدهم بأنه قائد قومه في الحرب، والمنافح عنهم، فيقال: مدره القوم أو ذو تدره القوم. قال الشاعر:

أعطى وأطراف العوالي تنوشه
من القوم ما ذو تُدْرَه القوم مانعه.

وعند الحديث عن القوم بصيغة الغائب يقال: ذو تُدْرَههم: «وقد دَرّه لقومه يَدْرَهُ دَرْها، وهو ذُو تُدْرَههم. ولا يقال تُدْرَههم حتى يُضاف إليه ذُو» (ابن سيدة، المخصص). ويزيد: «قال الفارسي: هو ذو تُدْرَئِهم وتُدْرَههم وقد دَرَأَه وَدَرَهه. والمِدْرَه الذي هو لسان القوم ورأسُهم والمتكَلِم عنهم الهاء فيه مبدلة من الهمزة» (ابن سيدة، المخصص). يضيف القاموس المحيط: «وهو ذو تُدْرَهِهِمْ، بالضمِّ،

أي: الدافِـعُ عنهــم» (الفيروزآبــادي، القاموس المحيــط). وفي تاج العروسَ: «وهو ذو تدرههــم بالضــم، وتدرئهم بالهمــز، أي الدافع عنهم» (الزبيدي، تاج العروس).

إذن، فلدينــا صيغتــان للتعبير (ذو تدرههــم) و (ذو تدرئهم). ذلك أن جذر (دره) في ما يبدو تنويع على جذر (درأ) الذي يعني الدفا ع أيضا. وهو تنويع مشابه للتنويع بين أراق وهراق.

واسم الرجل في النقش في إحدى القراءتين اللتين افترضناهما هو مثل الصيغة الأولى: (تدرههــم). بالتالي، فهو اسم معدول عن صفة، ولذا جــاز أن يكون بلا (ذو). فحيــن نصف أحدا ما بأنه المدافع عن قومه، لا يجــوز أن نقول (هو تدرههم)، بل يجــب أن نقول (ذو تدرههم). لكــن حين نحول الصفة إلى اسم، فلسنا ملزمين بوضع (ذو) قبله، كما هو الحال في النقش.

بالطبــع، إذا قرأنا الحرف قبل الأخير فــي الكلمة ياء، فالاسم سيكون (تدرهيــم). وهذه صيغة لم تسجلها لنــا القواميس هذه الصيغة. لكن (تدرهيــم) يمكن أن تكون، نظريا، صيغــة مبالغة من (ذو تُدْره). غير أننــا نميل بشدة إلــى أن الاسم في النقش بهاءيــن. أي أن اسم الرجل صاحبنــا، وكاتب نقش أسيس، هــو (تُدْرَههم)، وهو يعني: صاحب دفاعهــم، المدافــع عنهم، في أغلــب الظن. وكما نــرى فهو، ورغم غرابته، اسم مهيب جدا في الحقيقة، ولعله يعكس الخلفية العسكرية لعائلــة الرجل. هذه الخلفية هــي التي تكون قد أوصلــت الرجل إلى قيادة منطقة (جبل أسيس).

أسيس

نأتي الآن إلــى (أسيس) التي كان أبو العش قــد قرأها (سليمن). وهذا يعني أنه استبعد منها شحطة البداية، ولم يعتبرها جزءا من اللكلمة. ولا بد انه فعل ذلك لسببين:

الأول: أن هــذه الشحطة بعيدة عــن الحرف سين بعدا يشكك في أنها جزء من الكلمة.

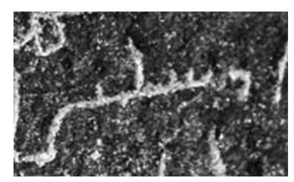
الثانــي: أن هذه الشحطــة بدت له أطول مما ينبغــي كي تكون حرفا. ذلك أن شحطة البداية في هذا السطر قد اشتبكت مع شحطة البداية في السطــر الذي يليه، فتكونت عصا طويلة جدا كان من الصعب اعتبارها حرفــا. وقد كان أبو العش مصيبا في قــراره بإبعاد هذه الشحطة. لكنه للأســف لم يتمكن من قــراءة الكلمة التي بعــد الشحطة بشكل سليم. كما أنه لم يفكــر بإزاحة الشحطات كلها في بدأت الأسطر كلها. لقد اكتفى بإزاحتها من هذا السطر فقط.

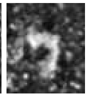
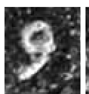
والآن بعــد أن أزحنا مثل أبو العش هذا الشحطــة، فإنه يمكن لنا قراءة الكلمة بشكل صحيح، وانطلاقا من قراءة روبين وغوريا. فالكلمة هي (سيســ) من دون ألف، لا (أسيس). وسيس هــو اسم الجبل عند أهل المنطقة حتى اليوم. فهــم يسمونه (سيس)، لا أسيس. كما أن النقوش الصفويــة سمته أيضا (سيس) لا (أسيس). بالتالي، (فتفصيح) الاسم لم يكن تفصيحا بل خطأ.

وقــراءة الاسم بهذه الطريقة السليمة تثبت أن الشحطة في بداية السطر ليست حرف ألف بل شحطة بداية.

رسلني

نأتي الآن إلى (أرسلني) التي ستصير (رسلني) بعد أن تأكدنا أن شحطة بدايــة السطــر ليست جزءا منهــا. والمشكلــة أنه لا يقال فــي العربية (رسلنــي) بمعنــى (أرسلني). بذا فنحــن مرغمون على قــراءة الكلمة بالواو بــدل الراء، أي (وسلني) بدل (رسلنــي). بالطبع نحن ندرك أن قراءتنا للكلمة بهذا الشــكل ستضعنا مع الواو في كلمة الأوسي، وهي واو تختلف عن الواو في كلمة (وسلني) المفترضة. فواو (وسلني) بلا رأس دائري مفرغ، كما نلحظ من الصورتين ادناه:



مـع ذلك، فأن الواو في (وسلنـي) المفترضة تبدو مختلفة عن الراءات الأخـرى في النقش. فوق ذلك يبـدو أن بعض التلف قد أصابها، وهو مـا يضع احتمـال أنها فقدت الشبه بواو (الأوسـي) بسبب هذا التلف لا غير. كذلك، وهـذا هو الأهم، فإن قراءة الكلمة بالواو مثمرة جدا. فهـي تجعل النص أشـد تماسكا ومتانة. بالتالـي، فبرهان المعنى يسد النقص في برهان الشكل.

وجـذر (وسل) يعطي معاني: التوسّـل والتقرّب والسرقة. وزيادة على هـذا فهو يعطي معى الدرجة والمنزلـة. والمعنى الأخير هذا هو الذي يلائـم وضع كلمة (وسلني) في النقش: «الوسيلة: المنزلة عند الملك. والوسيلة: الدّرجة» (لسان العرب). بل إن الوسيلة تعني الدرج الرفيعة عنـد المصادر المهتمة بالتفسير القرآنـي والأحاديث النبوية. فقد جاء في القرآن: «أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة» (الإسراء: 57). وقد فهمت الكلمة هنا على أنها القربى أو الدرجة الرفيعة. وفي حديـث نبوي أن الرسول طلب أن تسأل لـه الوسيلة، بمعنى: الدرجة الرفيعـة: «الوسيلة درجة في الجنة: وهـي التي جاء الحديث الصحيح بهـا في قولـه عليه الصـلاة والسلام: فمـن سـأل لي الوسيلة حلت له الشفاعـة» (تفسير القرطبي). وفي الدعـاء المشهور: (اللهم رب هذه الدعوة التامـة والصلاة القائمـة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد). من أجل هذا دعي الرسول بذي الوسيلة، أي ذي الدرجة العالية.

بناء على هذا تجب قراءة الكلمة في النص مع تشديد السين: (وسّلني)، وبمعني عيّنني، أو وضعني في رتبة، أو أدرجني في درجة. بذا فالجملة تقول: «وسّلني الحارث الملك على أسيس مسلحة»، أي «عيّنني الملك الحارث على أسيس مسلحة». وهذه في الحقيقة جملة عربية متينة متماسكة تعطي نكهة زمن قديم. أما جملة (أرسلني الملك على أسيس مسلحة) فتبدو في الحقيقة أحدث من اللازم بالنسبة لنص من قبل الإسلام.

مسلحة

نأتي الآن إلى كلمة (مسلحة). ومشكلة هذه الكلمة نبعت من أن القواميس العربية تحدد لها معان لا تتوافق مع وضعها في سياق النص. فالقواميس تخبرنا أن لهذه الكلمة ثلاثة معان متقربة:

أولا: أنها نقطة مراقبة عسكرية في منطقة حدودية: «المسلحة: كالثغر والمرقب» (لسان العرب).

ثانيا: أنها اسم لمفرزة عسكرية في نقطة حدودية، أي اسم للمجموعة البشرية وليس للنقطة العسكرية فقط: «المسلحة: قوم في عدة بموضع رصد قد وكلوا به بإزاء ثغر، واحدهم مسلحي، والجمع المسالح. والمسلحي أيضا: الموكل به والمؤمر» (لسان العرب)

ثالثا: أنها مجموعة استطلاع هدفها تقصي تحركات العدو: «ابن شميل: مسلحة الجند: خطاطيف لهم بين أيديهم ينفضون لهم الطريق، ويتجسسون خبر العدو ويعلمون علمهم، لئلا يهجم عليهم» (لسان العرب).

وبما أن المعنى الأول لا يمكنه أن يتوافق مطلقا مع وضع كلمة (مسلحة) في النص، فإنه يتبقى لدينا المعنيان الآخران. وهما لا يتوافقان مع ياء المتكلم في (أرسلني)، حين كنا مع أرسلني، فهي تشير

إلـى مفرد في حيـن أن (مسلحة) تشير إلى الجمـع، أي إلى مجموعة مراقبة وحراسة أو مجموعـة استطلاع. بالتالي لدينا مشكُلة قواعدية. فـلا يصح عربيا أن يقـال (أرسلني الملك الحرث علـى أُسيس مفرزة عسكريـة، أو مجموعة استطلاع). ولو كان الأمر يتعلق بمفرزة لكان النص قد قال (أرسلنا) أو (أو أرسلني مع). لكنه قال (أرسلني)، حسب القراءة القديمة. وكان هذا يثير الاضطراب.

وقد طرح عرفان شهيد فرضية أن الكلمة ربما يجب أن تقرأ (مسلحه)، أي أننـا مع هاء لا تـاء مربوطة، وأن هذه الهاء ضميـر يعود إلى المَلَك الحـارث. لكن هذا الاقتـراح صعب القبول، فهو يوحـي وكأنه ليس للملـك الحـارث سوى مسلح واحـد معروف وشهيـر. يعني مثل أن تقـول: أرسلنـي الملك إلى قصـره. وهذا غير ممكـن، إذ يفترض أنه كان لمملكة الحارث مسالح متعددة على طول الحدود. بالتالي، فقد ظلـت المعضلة قائمة. مع ذلـك، فقد فسرت الجملة علـى أنها تعني عموما: أرسلني مع مجموعة مسلحة، أو أرسلني مع السلاح، في نوع من التحايل على معاني الكلمة في القواميس.

والحقيقـة أن منطـق النص يوحي بـأن الرجل أرسل فـي الواقع كآمر علـى سيسـ. أي أن كلمة مسلحـة في النص تعني آمـرا أو قائدا. يؤيد هـذا وجود كلمة (علـى) التي تفيد معنى العلـو والسيطرة. ومع قراءة (وسّلني)، بمعنـى عيّنني، بدل (أرسلني)، يتضح اكثـر فأكثر أن الأمر يتعلـق برتبة محددة، أي أن الكلمة تعني آمرا وقائدا. فالملك الحارث عيـن الرجل أمـرا على (جبل سيسـ). لكن المشكلـة أن هذا المعنى يخالف نص القواميس، التي لا تقول لنا أن مسلحة تعني: آمرا.

فما هو الحل إذن؟

الحـل يكون بنسيـان القواميس والذهاب إلى كتـب التاريخ. فكتب التاريـخ توضح لنا مـن دون شك أن كلمة مسلحة تعنـي: آمرا وقائدا عسكريـا. وهـذا يعنـي أن القواميس العربية فشلت فـي التقاط هذا

المعنـى وتسجيلـه، لكـن المؤرخين أمسكـوا به، وسجلـوه مرات عديدة. وهذا أمـر مفهوم. فكلمة مسلحة فـي النص مصطلح إداري عسكري. والمؤرخون أعرف من اللغويين بالشؤون العسكرية. ذلك ان التاريـخ الذي يعالجونه هو في الواقع كتلة من الصراعات السياسية والعسكريـة. وإليك بعض هذا الأمثلة في كتب المؤرخين حول كلمة (مسلحة):

ابن الجوزي:

«وكان بها مالك بن كعب مسلحة لعلي في ألف رجل» (ابن الجوزي، المنتظم).

مالك هنا، وكشخص مفرد، كان مسلحة، أي كان قائدا عسكريا يأمر على ألف رجل.

الطبري:

«قال: وفيها إبراهيم بن هشام مسلحة» (تاريخ الطبري).

وإبراهيم بن هشام كان مسلحة أيضا، أي آمرا قائدا. فإبراهيم لا يمكن أن يكون كتيبة أو مفرزة.

الطبري أيضا:

«وكان الواثق وجـه حماداً مسلحةً للمدينة لئلا يتطرقها الأعراب، في مائتي فارس من الشاكرية».

الواثـق وجه حمادا مسلحة، أي آمـرا. إذ لا يمكن أن يكون قد وجهه كمفرزة عسكرية.

ابن أبي الحديد:

«خرجنا حتى انتهينا إلى دير الخرارة، فإذا القوم عليهم مسلحة بن أبي لينة» (ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة).

النص يقول (القــوم عليهم مسلحة)، أي قائدا وأميــرا. وهذا شبيه بما جاء في النقش (على أسيس مسلحة).

ابن خلدون:
«وكان زيــاد وأصحابــه قد خلفوا أبا سعيــد القرشي مسلحةً وراءهم» (تاريخ ابن خلدون).

وكما نرى فأبو سعيد القرشي خُلِّف مسلحة وراء القوم، أي آمرا.

إذن، فــلا مجال للشــك بأن كلمة (مسلحة) فــي كل هذه المقتبسات تعنــي: آمرا وقائدا. ونقش أسيس يستخدم كلمة مسلحة بالمعنى الذي أوردتــه لنا النصوص التاريخية أعلاه. بذا فالملك الحارث عيّن الرجل قائــدا على منطقة جبــل أُسيــس، أو على الموقع العسكــري في جبل أُسيس:

«وسّلنــي [عيّننــي] الحارث الملــك على [جبل] سيســ مسلحة [أي آمرا]». ومع أزالة التأخير والتقديم: «وسّلني [عيّنني] الملك الحارث مسلحة [أي آمرا] على [جبل] سيس».

خلاصة

بهذه القراءة نكون قد توصلنا إلى:

أولا: أن لغة القش عربية متقنة ما بها من هنة ولا أذى. وهي لغة تتوافق بقوة مع الشعر الجاهلي والقرآن.

ثانيا: كما توصلنا إلى استعــادة اسم عربي قديم وفريد هو (تدرههم)، وإلــى استعادة الفعل (وسّل) بمعنى عيّن، بعد أن سقط من الاستعمال. هذا إضافة إلى التحديد الدقيق لمعنى كلمة مسلحة، وإلى استعادة اسم (جبل سيس) الأصلي.

ثالثـا: كمـا توصلنا، وهـذا هو الأهم، إلـى أن علينا لا نركـن أبدا إلى القـراءات السائدة للنقوش العربية القديمة. بـل علينا أن نطرحها على منضـدة الشكك، وأن نعيد تفحصها. فأهل اللغـة وأبناؤها هم الأكثر قدرة من غيرهم على الإحساس بهذه النصوص وفهمها، مهما توفرت للباحثين من غير أبناء هذه اللغة من قدرات ومهارات.

وانطلاقا من هذا ربما كان علينا معالجة توقيت النقوش، التي عالجناها هنا، حتى نتثبت من صحة التواريـخ المقررة. وقد تركنا هذه المسألة لغيرنا، فنحن لسنا من أهل الاختصاص فيها.

مصادر الفصل الثالث

- ابن الأثير المؤرخ، الكامل في التاريخ: نسخة إلكترونية من: www.alwarag.net
- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، نسخة إلكترونية من: www.alwaraq.net
- ابن الحاجب، شرح الكافية، نسخة إلكترونية من: islamport.com
- الزمخشري، المفصل في صنعة الأعراب، نسخة إلكترونية من: www.alwaraq.net
- ابن الجوزي، المنتظم: نسخة إلكترونية من: www.alwaraq.net
- ابن الجوزي، المنتظم، نسخة إلكترونية من: www.alwaraq.net
- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، نسخة إلكترونية من: www.alwaraq.net
- ابن منظور، لسان العرب
- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.net
- الحليل بن أحمد، العين: نسخة إلكترونية من الوراق: www.alwaraq.net

- الطبري، تاريخ الطبري، نسخة إلكترونية من: www.alwaraq.net
- القرآن الكريم
- القرطبي، تفسير القرطبي: نسخة إلكترونية من: www.alwaraq.net

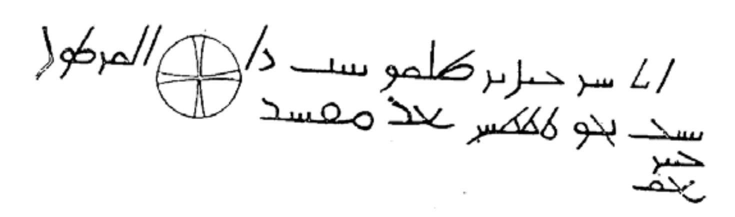
- Christian Robin and Maria Gorea, Un réexamen de l›inscription arabe préislamique du Ğabal Usays (528-529 è. chr.), Arabica, T. 49, Fasc. 4 (Oct., 2002), pp. 503-510,: BRILL
- Macdonald M.C.A, 2010, The Old Arabic grafito at Jabal Usays, Editor M.C.A. Macdonald, Papers from the Special Session of the Seminar for Arabian Studies held on 24 July, 2009 Oxford, Archaeopress, Oxford
- Larcher Pierre, In search of a standard: dialect variation and New Arabic features in the oldest Arabicwritten documentsAuthor(s): Pierre LarcherSource: Proceedings of the Seminar for Arabian Studies, Vol. 40, Supplement: TheDevelopment of Arabic as a Written Language. Papers from the Special Session of the Seminarfor Arabian Studies held on 24 July, 2009 (2010), pp. 103-112Published by: Archaeopress
- http://www.syriaphotoguide.com/home/jebel-seis-%D8%AC%D8%A8%D9%84-%D8%B3%D9%8A%D8%B3

الفصل الرابع

نقش حرّان اللجاة

يعد نقش حران اللجاة، الذي عثر عليه في جبل العرب (جبل الدروز) فـي سوريا في القرن التاسع عشر، واحدا مـن أهم النقوش العربية قبل الإسلام. بل إن الدكتور جواد علي يعتقد، وربما بقدر من المبالغة، أنه الأكثـر قيمة من بين هذه النقوش: «وهـذا النص هو من أهم النصوص المتقدمـة، وأكثرها قيمة بالنسبة لمؤرخ اللغـة العربية، لأنه نص دوّن بلهجـة القرآن الكريم، باستثناء أثر سهل للنبطية برز عليه... فأنت أمام نص عربـي واضح، تفهمه من دون صعوبة ولا مشقة. على حين نجد النصوص الأخرى وقد كتبت بنبطيـة متأثرة بالعربيـة الشمالية بعض التأثـر. ولهذا فإنـي أفرق بين هـذا النص وبين النصوص السابقة له، وأعـده أول نص وصل الينا حتى هذا اليوم كتـب بلهجة عربية القرآن الكريم» (جواد علي، المفصل)

ونقش حران هذا ثنائي اللغة، كتب بالعربية واليونانية. أما النص العربي فيقول، حسب القراءة السائدة والمقبولة: «أنا شرحيل بن ظلمو بنيت ذا المرطول سنة 463 بعد مفسد خيبر بعام».



صورة النص العربي في نقش حران

أما النص اليوناني فيقول حسب الباحثين: شرحيل بن تلمو، الفيلارخ، بنـي هذا المشهـد ليوحنا المقدس سنـة 463، ولتبق ذكرى الكاتب. وحسـب المختصين، فإن الرقـم 463 في النص هـو سنوات توقيت الولاية العربيـة البيزنطية Provincia Arabia حتى حينه. وبإضافة السنـوات منذ سقوط بصرى بيد الرومـان، وهي 105 سنوات، يصير لدينا الرقـم 568، وهو رقم التوقيت الميـلادي للنقش. أما الفيلارخ فمنصـب بيزنطي يعني (العامل) أو شيـخ القبيلة، فشيوخ القبائل كانوا عمالا لدى بيزنطة على مناطقهم. في حين (المرطول) تعريب تحريفي للكلمـة اليونانية التي تعنـي (مشهدا)، من الشهـادة، وهو مبنى ديني لشهداء الكنيسة المقدسينmartyrium .

وكما نرى فالنقش العربي ليسـ ترجمة حرفية للنص اليوناني. فالنص العربي يتحـدث بلسان المتكلم، في حين أن النصـ اليوناني يتحدث بصيغة الغائب. كما أن النص العربي لا يذكر القديس يوحنا الذي أقيم لـه المشهد، بل يكتفي بذكر المرطول. فـوق هذا، فهو يضيف توقيتا محليـا آخر غير التوقيـت الرسمي البيزنطي (بعد مفسـد خيبر بعام). كذلـك فـإن النص العربي لا يحوي جملة عن كاتـب النقش، كما هو الحال مـع النص اليوناني. ويبدو للمرء وكأن صاحبنا شرحيل لـم يكن يقرأ اليونانيـة، لذا تمكن النقاش من دحش جملة في النص عن نفسه، بينما لم يتمكن مـن كتب النقش العربي من الحديث عن نفسه، سواء كان هو نفسه من نقش النقش اليوناني أم غيره. أو لعل وضع النقاشين باليونانيـة أكثر رسوخا من وضع النقاشيـن بالعربية، الأمر الذي جعل نقاش النص اليوناني يثبت اسمه على الحجر.

ومـن خلال مـا ذكرناه يمكـن القـول أن النص العربـي يحمل روحا محليـة واضحة جدا. فهو مثلا لا يكترث بذكـر القديس يوحنا الذي بنـي لـه المشهد. وهو ما يدل على أن الجمهـور المحلي لا يهتم بأمر يوحنـا. كما أنه يستخدم في مـا يبدو الصيغة الشعبيـة للاسم اليوناني (المرطـول). ثم إنه يعمد إلى تثبيت تاريخ يبدو محلي الطابع، لا يهتم

بـه النص اليوناني. فوق ذلـك فهو لا يهتم بلقب الفيلارخ الذي يعطيه النص اليوناني لشراحيل. وهذا الطابع المحلي مهم جدا لفهم النقش، وربما لقراءته بشكل سليم حتى.

وقـراءة النص التي بين أيدينا عمل عليهـا أكثر من شخص واحد. لكن الجملـة الأخيـرة في النص، والتي بدت للباحثين فـي حينه لغزا قاتلا، حلت علـى يد ليتمان، في بدايات القرن العشريـن. فهو الذي قدم لنا الصيغـة المقنعة (بعد مفسـد خيبر بعام) مسكتا بذلـك الجدل حول هـذه الجملة نهائيا تقريبا. فهذه القراءة مقبولة الآن تماما ومتفق عليها إجمالا، وليس هناك أي جدالات جدية بشأنها.

جدال حول ما لا جدال حوله

والحـال، أننا نريد هنا أن نمسك بهـذه الجملة، وأن نفتح الجدال من جديد حولها، باعتبارها أهم جملة في النص كله. فهي تحمل مترتبات سياسيـة وجغرافية كبيرة جدا. إذ هي تعرض لنا، وكما حصل مع نقش النّمارة، مشهـدا إقليميا واسعا، يربط بين الشـام وأعماق الحجاز، لا محليـا صغيرا. إذ فهم أن جملة (مفسد خيبـر) تشير إلى غزوة قام بها الغساسنـة لواحة خيبر قرب المدينـة المنورة في أعماق الحجاز. وقد صار هذا الفهم أمرا شائعا ومسلما به. وخذ هذا المقتبس من الدكتور جواد علي:

«وأقدم إشارة كتابية ورد فيها اسم خيبر [هي] نص حران اللجاة، ويرجع تأريخـه إلى سنة مئة وستيـن من الأندقطية الأولـى، وتقابل سنة 568 للميـلاد، وقد ورد فيه: «بعد مفسد خيبـر بعم». أي بعد خراب خيبر بعام. وهو يشير إلى غزو لهذا الموضع أنزل به خسائر كبيرة، ولأهميته وفداحته في نفوس أهله أرخوا بوقوعه. ويعود النص المذكور المدون باليونانية والعربية إلى شرحيل بن ظلمو «شراحيل بن ظالم»، وقد دونه لمناسبة بنائه «مرطولا»، فـأرخ بتاريخ خيبر المذكور. وهو يشير إلى غزوة قام بها أحد أمراء غسان على خيبر»(جواد علي، المفصل).

وهكـذا فقد فتحت قـراءة ليتمان البـاب لجعل فيلارخيـة صغيرة في حوران تهتم بشـدة بحدث في حرة خيبر البعيدة وتوقت به. وهو أمر غريب ومثير للشك حقـا. إذ كيف لحدث محلي في خيبر، التي تبعد مئات الأميال، أن يهـم أناسا بين درعا والسويداء حد أن يجعلوه بداية لتوقيت ما عندهم؟!

خيبر أم جبير؟

منطلقين من هـذا الشك، نريد أن نذهب إلى الكلمة الثانية في الجملة لنقترح أنه يجب قراءتها على أنها (جُبير) لا (خيبر). أي أنها اسم رجل لا اسـم مكان أو بلدة. ولا يستطيع أحـد أن يجادل في أن هذه القراءة ممكنـة من حيـث الشكل على الأقل. فهي لا تزيـد عن أن تعيد تنقيط مـا قرأه ليتمان، جاعلة النقطة تحت الحرف الأول لا فوقه، قالبة موقع الحرفين التاليين.

وإذا كان الأمر يتعلق بجبير لا بخيبر فإن كلمة (مفسد) في النص توضع تحـت ضوء مختلف. فهي في هذه الحال لن تعني غزوة بأي حال من الأحـوال. وأقصى ما يمكن أن تعطيه هو معنى الانشقاق والتمرد. أي أن معنـى الجملة يصير هكذا: (بعد تمـرد جبير بعام)، مع ملاحظة أن التمرد هنا يشمل العيثان والتخريب. فجذر (فسد) العربي ذاته لا يتيح بسهولـة الحديث عن غزو، وعلى الأخص في السياق الأقدم لمعانيه. فمعنـاه الأصلـي هو عكـس الصـلاح. إذ المفسدة ضـدُّ المصلحة، وعكسِهـا. وجاء في القرآن عـن الأرض والسماء: «لو كان فيهما آلهة إلاَّ الله لفسدتا»(سورة الأنبياء: 22) أي لاضطرب أمرهما ولم يصلح. ويقال فـي العربية: «رجل عَيْثان مُفْسد» (لسـان العرب). كما يقال: عـاث فسادا في الأرض، أي تخريبا. بناء عليه، فصيغة (بعد تمرد جبير بعام) صيغة ممكنة. فشرحيل يؤرخ بناءه للمرطول بحدث محلي أهمّ أهـل حران اللجاة والمنطقة التـي حولها. ويبدو أن تمرد جبير هذا قد حدث ضد الفيلارخ شرحيل ذاته، او ضد السلطة البيزنطية في إحدى

مناطق حوران وجبل العرب عموما. ومن الواضح أنه كان تمردا مهما بالنسبة لحران وجوارها، ولولا ذلك لما جرى ذكره في النقش. وهذه القراءة تؤكد من جديد الروح المحلية للنص العربي.

وبناء على هذه القراءة، تصبح السيناريوهات حول غزو غساني لخيبر في أعماق الجزيرة العربية مجرد سيناريوهات خيالية انبثقت من عقول باحثين غربيين انطلاقا من علاقتهم الوطيدة بالكتاب المقدس. فاستنادا إلى هذه العلاقة فإنه يكون سهلا على أذهانهم، وأكثر جاذبية لها، أن يقرأوا (خيبر) بدل (جبير). فوجود رجل باسم (جبير) في النقش لن يكون قصة. أما وجود (خيبر) فقصة كبيرة. فهناك التجمع اليهودي الذي يستدعي التوراة بكل ذكرياتها وقصصها وأبطالها.

بالطبع، يمكن لكلمة مفسد أن تعني الخراب، سواء كان خرابا ناتجا عن سبب طبيعي كالزلازل، أو عن سبب من صنع البشر. لكن قراءة ليتمان (مفسد خيبر) لا تقول لنا لم يكون على أهل اللجاة أن يهتموا، إلى هذا الحد، بخراب في حرة خيبر، أيا كانت أسبابه، حد التوقيت به؟

مفسد أم مقسد؟

هذا ما يخص جبير وخيبر.

غير أن هناك احتمالا معقولا لأن تكون قراءة كلمة (مفسد) ذاتها محل شك أيضا. فالحرف الثاني فيها قد يقرأ بسهولة على أنه حرف قاف لا حرف فاء. أي أننا مع: (مقسد) لا (مفسد). وكلمة (مقسد) يمكن لها أن تدعم أننا مع جبير لا مع خيبر. لكن هذا يقتضي أن نتوقف كي نحاور هذه الكلمة التي لم تعد مستعملة.

وجذر (قسد) العربي جذر شبه مهمل. فليس فيه سوى كلمة واحدة منقطعة وغامضة: (قِسْود). وإهمال الجذور أو ذويانها في

العربيــة عادة ما تكون علامــة على قدم هذه الجــذور. فمع الزمن تسقــط اشتقاقات جذر ما ويذوي. وقــد وردت كلمة (قسود) في شطر بيت شعري:

ضخمُ الذِّفارى قاسياً قِسْوَدّا

وقــد افترضــ أحد اللغوييــن أن القسود هنــا تعني: الغليــظ الرقبة. ثم صار هذا شيئا تكرره القواميســ العربية. كلها تقريبا: «لقَسْوَدُّ: الغليظ الرقبــة القــوي» (الخليل بــن أحمد، العيــن). يكرر الأزَهــري: «قال الليث: القسْــوَدُّ. الغليــظ الرَّقبــة القوي» (الأزهــري، تهذيب اللغة). ومن الواضَح أن هذا تفسيــر استنتج من الشطر الشعري استنتاجا، أي أنــه لا يقــوم على شاهد ما. فانطلاقا مــن أن الرجل يوصف في الشطر بأنه (ضخــم الذفارى)، فقد رؤي أن القسود هو الغليظ الرقبة القوي. فالذفرى هي أصل الأذن أو أنها عظم في أعلى عنق الإنسان. وما دمنا مــع أشياء لها علاقة بالرقبــة، فقد افترض هذا اللغــوي أن كلمة قسود لا بــد أن تعني شيئا يخص الرقبة أيضا. وهكــذا وصلنا إلى أن القسود تعني: ضخم الرقبة. فالرجــل إذن ضخم الذفارى وضخم الرقبة. غير أن وجود كلمة (قاسيــا) قبل كلمة (قسود) يجعل من مثل هذا التفسير أمــرا صعب القبول. بالتالــي، فالأقرب للمنطق أن الأمــر يتعلق بصفة معنوية لا جسدية، أي أنه قاس ومتمرد، أو متجبر مثلا. لكن هذه مجرد إشارة ضئيلة وبعيدة، لن تساعدنا كثيرا في تفسير الكلمة الغامضة التي افترضنا وجودها في النقش (مقسد).

القاسد

لذا ربما كان علينا أن نذهب إلى العربية الجنوبية كي نفهم هذه الكلمة. وبالمناسبــة فــإن الغساسنة– إن كان النقش غسانيــا كما يفترض– من أصــل عربي جنوبــي عند النسابــة العــرب. ولجذر قسد فــي العربية الجنوبية معنيان رئيسيان:

الأول: يشير إلى رتبــة عسكرية: (يكوّن المحاربون طبقة خاصة بهم، وهم أناس احترفوا الخدمة العسكرية وعاشوا عليها، وقد أشير إليهم في الكتابــات وعرفوا ب ... (قسد) (ق سـ د)» (جواد علي، المفصل). يضيــف الدكتور علي في مــكان آخر: «وقد يقوم الملــك نفسه بقيادة الجيوش وإجراء العمليات الحربية، وقد يترك ذلك إلى قوّاده، يقومون بها ويديرونها بحسب علمهم وخبرتهم بالحروب. والقائد هو (قسد) أي (قاسد) في لغتهم» (جواد علي، المفصل). ثم يزيد في مكان ثالث: «ويظهر من دراسة بعض النصوص... أن (القُسُود)، كونوا طبقة كبيرة خاصة فــي دولة سبأ، كانــت منزلتها دون منزلة الأشـراف وأصحاب الإقطاع وفوق رقيق الأرض (جواد علي، المفصل).

إذن فالقاســد، أو القسد، رتبة عسكرية محددة، تعني: ضابطا أو آمرا، أو شيئا من هذا القبيل.

وانطلاقــا من ذلك يكون معنى كلمــة (مقسد) في نقش حران اللجاة: تعيينه قاســدا، أي آمرا. بالتالي يجب قراءة جملــة ليتمان هكذا: (بعد تعيين جبير قاسدا بعام). وهذه جملة معقولة ومقبولة.

المعنى الثاني: التمرد والثورة: «و(قسْدت) و (قسد) بمعنى ثورة وثار. فالثورة هــي (قسدت) في العربية الجنوبية» (جــواد علي، المفصل). وانطلاقــا من هذا المعنى تكون جملة نقش حـران اللجاة: (بعد ثورة جبير، أو تمرد جبير، بعام).

وهكــذا، فنحن في الحالين مع رجل يسمــى جبيرا، وهو إما رجل ذو رتبــة عسكرية رفيعة، أو رجل تمرد علــى الفيلارخية، أو على الحكم البيزنطــي في منطقــة الفيلارخيــة، وكان لتمــرده شأن كبيــر في هذه المنطقــة. ونحن في الحقيقة أميل إلى المعنى الثاني أي إلي (بعد تمرد جبير عام)، لكن في كل حال لا يمكن استبعاد الاحتمال الأول مطلقا.

وهـو احتمال يقضي بأن يكون جبير شخصيـة أهم بكثير من شخصية الفيـلارخ شرحيل نفسـه حتى يجري التوقيت بتعيينـه في منصبه. بذا فمـن المفترض أن تكون كلمة (قسد، قاسد) هنا عديلا عربيا لمنصب عسكري بيزنطي كبير.

توقيت نقش حران

إذا صـح هذا، فهـو يعني أنه كانـت هناك في العربية كلمـة (قسد) أو (قاسـد) بمعنـى (متمرد) أو (قائـد)، وقت كتابة نقـش حران. ويبدو أنهـا كانت كلمة من المشترك بيـن العربية الشمالية والجنوبية، أو أنها من الكلمـات التي استعارتها العربية القرآنية من العربية الجنوبية. وفي حال كونها استعارة، فـإن الأغلب أنها كانت مصطلحا عسكريا يعني (قائدا) ما. ذلـك أن استعارة المصطلحات أشيـع من استعارة غيرها. غيـر أن القواميس العربية لم تدون هذه الكلمـة، فلم تصل إلينا. وهذا قـد يحدث أحيانا. فلم تصـل إلينا بالتأكيد كل المفـردات التي كانت مستخدمة في الجاهلية قبيل الإسلام. لكن هذا هو الاحتمال الأضعف فـي رأينا في ما يخص هـذه الكلمة. فلا يستسـا غ أن يفشل اللغويون العـرب، وبسهولة، في العثـور على هذه الكلمة المهمـة وتسجيلها. وهـذا ما يدفع إلى طرح احتمال ثـان، وهو أن الكلمة كانت موجودة فعلا ثم سقطت من الاستعمال، ولم يسجلها اللغويون. ليس هذا فقط، بل إن جذرها ذاته ذوى، وأوشك على الموت. إذ رأينا أنه ليس تحت هذا الجذر العربي سوى كلمة (قسود) فقط. وذويّ الجذر هو الأهم. فلا تسقط الجذور (تهمل) في وقت قصير. فلا بد أن يمر زمن لا بأس به حتى يذوي جذر ويهمل.

وإذا صـح هذا الاحتمال، فإنه قد تكون له تداعيات على توقيت نقش حـران. فإذا كانت كلمة (قسد، قاسد) قـد سقطت من الاستعمال في العربيـة، بل ومـات جذرها تقريبا، فهـذا يقود إلـى أن نقش حران لا يصح أن يكون قريب العهـد إلى هذا الحد من البعثة النبوية والإسلام.

فالفارق بين تاريخ كتابة النقش وبين مولد الرسول سنتان اثنتان لا غير. ومن الصعب أن يكـون التعبير (قسد، قاسد)، بأحد معنييه الممكنين، قـد اختفى من الاستعمال خلال هذه الفتـرة القصيرة. ينبغي أن تكون هـذه الكلمة قـد سقطت من الاستعمـال قبل مولـد الرسول بوقت لا بأس به حتـى تضيع ولا تصلنا. لكن المشكلـة أن النقش مؤرخ، وأن المختصين يقولون لنا أن هذا التاريخ هو 368 م. وليس لنا إلا أن نذعن لذلـك، مع ان شكا يظل فـي نفوسنا حول ذلـك. فكيف يحمل نص يبعد فقط 40 سنة عن البعثة النبوية بقايا نبطية واضحة تتمثل باستعمال (بـر) النبطية، بدل (بن) العربية، وبإضافة الواو النبطية إلى الاسم ظالم (ظلمـو)؟. إذ يفترض أن اللغـة العربية قد تخلصت من مثل هذه الآثار النبطية في كتابتها.

لكننا نترك هذه المسألة على صيغة تساؤل متشكك لا غير.

مصادر الفصل الرابع

- الأزهري، تهذيب اللغة: نسخة إلكترونية من: www.alwaraq.net
- الخليل بن أحمد، العين: نسخة إلكترونية من: www.alwaraq.net
- جـواد علي، المفصل فـي تاريخ العرب قبل الإسلام: نسخـة إلكترونية من: www.alwaraq.net
- ابن منظور، لسان العرب
- القرآن الكريم

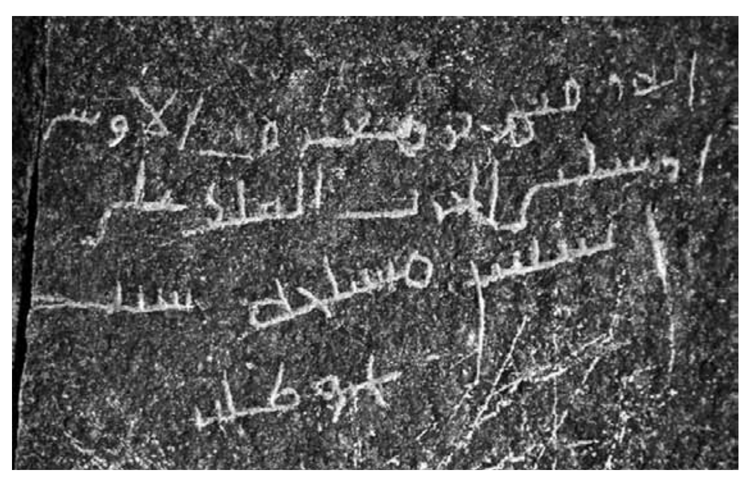
قصتي مع نقش أسيس

هــذا الفصل الملحق محاولــة لعرض قصتي مع (نقشــ أسيس)، علها تنفع في تقديم نموذج لمعالجات النقوش العربية القديمة، وما فيها من مصادفــات وضربات حظ، وكيف ينبثق الصحيح أحيانا من الخاطئ، والعكس، وكيف يقود إلــى فرضٌ إلى فرضٍ، أو كيف يتم التخلي عن فرض لصالح فرض غيره، وما إلى ذلك.

فبعــد محاولات لفك ألغاز النقش، بدا لــي، في لحظة من اللحظات، أن علــيّ أن أبعــد هذا النقش عــن كتابي. فقد أحسســت أن ما أضفته بخصوصــه ليس كبيــرا كما هو الحال مــع النقوش الثلاثــة الأخرى. وكنــت قد توصلت إلى تحديد معنــى كلمة (مسلحة) بشكل دقيق في النصــ. كما أنني طرحت احتمال أن تكــون الكلمة الأولى في السطر الثاني (أوسلنــي)، بمعني عيّنني، وليس (أرسلنــي). فكلمة (أرسلني) فــي سياق النص تبدو غير ملائمة، بــل وحديثة أكثر ما ينبغي لنقش من قبل الإسلام. كمــا أن (أوسلني) بالمعنى الذي أشرت إليه، أي عينني، تتوافــق مع وضع كلمة (على) التي تعطــي معنى العلو والفوقية، إضافة إلى أنها تؤكد صحة تحديدي لمعنى كلمة (مسلحة). فالجملة تصير: «أوسلنــي [أي عيّنني] عينني الملك الحارث على أسيس مسلحة [أي آمرا]». لكنني خفــت أن يكون هذا الاقتراح فذلكة مني، خاصة أنني لم أعثر عل صيغة (أوسلني) في الجذر (وسل).

لكــن عدم إحــراز تقدم مقنع بشــأن اسم صاحب النقشــ، هو النقطة

الحاسمة التي جعلتني أقرر، في النهاية، إزاحة النقش من الكتاب. فقد بذلت محاولات لفك لغز هذا الاسم، لكنها لم تثمر عن شيء جدي أو مثير. وقد كان مدخلي في هذه المحاولات ما يلي:



صورة نقش أسيس من ماكدونالد

الأول: الفراغ الذي يوجد وسط الاسم الذي قرأه أبو العش على أنه (إبرهيم). هذا الفراغ يقسم الاسم المفترض إلى قسمين: (إبر... هيم). وقد افترضت أن هذين القسمين يشكلان كلمتين منفصلتين.



الفراغ في وسط الاسم الذي كان قد قرئ سابقا على أنه (إبرهيم)

الثاني: الاستناد إلى قراءة روبين وغوريا للجزء الأول من الاسم. وهما قد قرءا: (أنه رقيم). لكنني افترضت أن الكلمة الأولى يجب أن تكون

(أنــا)، وأن وراءها حرفان هما: (دال) و (واو). وبما أن الدال والذال حرف واحد قبل التنقيط، بذا يمكن لي قراءة الحرفين على أنهما (ذو). وإذا كانت هناك كلمة (ذو) فلا بد أن نكون مع اسم مركب من كلمتين فعــلا. الجزء الأول منه هو (ذو) تتبعه ثلاثــة أحرف. بذا قد نكون مع اسم مركب يشبه: (ذو هيم، ذو هتم، ذو فبم، ذو قتم، ذو قثم) إلخ.

ثم حاولت، بقدر طاقتــي، أن أبحث عن اسم عربي يبدأ بكلمة (ذو)، مثــل الأسمــاء: ذو نؤاس، ذو يــزن، ذو الجدين، إلــخ، على أن يكون متوافقــا مــع الحروف الثلاثــة الأخيــرة، ففشلت في ذلــك. وهذا ما جعلني أقرر إبعاد النقش عن الكتاب.

غيــر أن مرارة علقت في حلقــي، بسبب هذا الفشــل، جعلتني أؤجل إعــداد الكتاب للطباعة علنــي أعثر على حل ما. وعلي مدى أسبوع أو أكثر وضعت صورة النقــش أمامي على الشاشة وحدقت فيه، محاولا العثور علــى مدخل يمكنني من حل لغز الاسم. لكن لم يحدث تقدم. ثم قــررت أن أقوم قمــت بجولة أخــرى، أشمل وأكثــر اتساعا، على الأسماء العربية القديمة علني أعثر على اسم يبدأ بـ (ذو). فاستعرضت، عبــر البحث الإلكتروني في مواقع التــراث، آلاف، بل عشرات آلاف الأسطــر التي فيهــا كلمة (ذو). لكنني لم أعثر علــى اسم مناسب. غير أننــي عثرت على تعبير بدا لــي غريبا وجديدا جدا علي، توحي حروفه بقرب من حروف اسم صاحب النقش: إنه (ذو تُدْرَهِهِم)، الذي يعني: صاحب دفاعهم، أو المدافع عنهــم. وكما نرى ففي هذا التعبير كلمة (ذو) إضافــة إلى أن الجزء الأخير منه (ههــم) قريب من الجزء الأخير في الاســم إبراهيم: (هيم). لكن هذا القرب لم ينفعني. فلو فرضنا أننا في النقش مع (ذو هيم) فهذه خمسة أحرف في حين أن الحروف التي لدينا في النقش سبعة أحرف على أقل تقدير.

وقلت في نفسي: لننس (ذو)، ولنبق مع (تدرههم). فهي وحدها، ومن دون (ذو)، قريبــة من الاسم كما قرأه أبــو العش، لكن من دون الألف (برهيم). ويمكنني بسهولــة أن أقرأ الحرفين (بر) في إبرهيم على أنها

(در). وحينها سيكون لدي: (درهيم). وهذا قريب من (تدرههم). وهكذا أسقطت كلمة (ذو) التي بدأت بها، وعدت إلى أبو العش، بعد أن كنت بدأت من روبين وغوريا. لكن المشكلة أنه تنقصنا التاء حتى نكون قريبين جدا من (تدرههم). فأين نعثر على التاء؟ فروبين وغوريا قرءا الاسم هكذا على أنه جملة تقول: (أنه رقيم). أما أنا فقد عدلت قراءتهم إلى (أنا) بدل (أنه). ومع هذه القراءة ليس هناك تاء. ومن دون التاء لن يكون للتشابه الذي عثرت عليه معنى.

ثم سألت نفسي: لم لا أقرأ النون تاء. فالنون والتاء يكادان يكونان حرفا واحدا قبل عصر التنقيط. وقرأت الحروف مع التاء: (تدرهيم). وهكذا لم يعد هناك إلا خطوة واحدة كي نصير مع (تدرههم). وهذه الخطوة تتمثل في افتراض أن الياء قبل الحرف الأخير كانت في الأصل هاء، ثم تلفت ولم يبق منها إلا شيء يشبه السن، فقرئت على أنها ياء. إذن، فنحن مع (تدرههم) في أغلب الظن. لكن حتى لو كنا مع (تدرهيم) فمن الممكن أن تكون الكلمة صيغة مبالغة من التعبير (تدره) الذي هو تنويع على (تدرههم)، وله نفس المعنى: أي المدافع عن القوم وحاميهم. لكننا أميل إلى الاحتمال الأول، احتمال (تدرههم). وقد أزيحت (ذو) منه، لأن الكلمة تحولت إلى اسم، ولم تعد صفة بحاجة إلى (ذو).

غير أن هناك عقبة أخرى بعد. إنها حرف الألف في (أنه) حسب قراءة روبين وغوريا.

فماذا أفعل بهذه الألف، التي بإمكانها أن تدمر ما وصلت إليه، وأن تجعل الشبه الذي عثرت عليه بلا معنى؟

وحدقت في صورة النقش أمامي. حدقت هكذا من دون فكرة محددة. وفجأة عادت إلى ذهني ملاحظة صغيرة كنت قد لحظتها قبل أسبوع او عشرة أيام، من دون أن أعيرها أي أهمية، وهي أن الكلمة الأولى في الأسطر الثلاثة الأولى في النقش تبدأ بالحرف ألف. وقد بدا لي أن هذه

الملاحظة الصغيرة صارت أمرا حاسما في هذا اللحظة. فهي تفتح باب السـؤال التالي: أهي مصادفة أن يبدأ كل سطـر من أسطر النص الثلاثة بالحـرف ألف؟ وإن كان الأمر لا يتعلـق بمصادفة، بل بشيء مقصود، فـإن هذه الألفـات قد تكون مجرد شحطات لتحديـد بدايات الأسطر وليست حروفا؟ بالتالي، لو أزحنا هذه الشحطة من بداية السطر الأول فسوف نحصل على كلمة (تدرههم) من دون زيادة ولا نقصان!

وبدا لي أنني حللت اللغز.

لكنني أردت أن أتأكد، فالتفت إلى زوجتي، وأنا أدير شاشة الكمبيوتر باتجاهها، وقلت: أنظـري، أليس غريبا أن تبدأ الأسطر الثلاثة من هذا النقش القصير بحرف ألف؟

فرفعت رأسها، وتمعنت فـي صورة النقش للحظات، ثم ردت، وهي تنظر من بعيد: أربعة. هناك واحدة أيضا في السطر الرابع.

وفي هذه اللحظة، وبهذه الملاحظـة، تأكد لي أن هذه ليست ألفات، بل هـي شحطات زائدة لتحديد بدايات السطـور. لم أعد بحاجة إلى تأكيد أكثر من التأكيد الذي كشفت عنه ملاحظة زوجتي. لقد حسمت ملاحظتها الأمر نهائيا. وتحولت الألفات إلى عصي سياج صغيرة من قصب لا دخل لها بالكلمات.

لـم أكن قد لاحظـت أن الشحطة فـي السطر الرابع شحطـة منفصلة. كنـت قد اعتقدت أنها خربشة أحدثتها مصادفة ما، وأضافتها إلى ألف (أسيسـ)، التي صارت معها ألفا أطول مما يجب. ولعل هذا هو الذي جعل أبـو الهش يهمل الألف في كلمة (أسيسـ المفترضة). وبما أنني لم أكن مهتما بالسطر الرابع، الذي يحوي التاريخ ولا يحوي كلمات، فلم أدقق كثيرا فيه وفي شحطته حتى جاءت ملاحظة زوجتي المفاجئة.

إذن، فالسطر الرابع فيه (ألف) هو الآخر، مع أنه لا يحوي أي كلمة كي تكـون هـذه الألف جزءا منها. فكل ما فيه هو رمـوز تمثل أرقاما. فوق ذلـك، فـإن الشحطة بعيدة جدا عن الرمـوز، ولا يمكن ان تكون جزءا

منهــا. وكل هذا تأكيد كاف على أن الألفات فــي بدايات الأسطر كلها ليست حروفا. إنها مجرد شحطات لتحديد بدايات الأسطر لا غير.

يجب إذن رمي هذه الألفات. يجب نسيانها. وهو ما سيؤدي إلى أعادة قراءة النص من جديد. فليس هناك في السطر الأول (أنه) ولا (أنا) ولا (إبرهيم). وليس في السطر الثانــي كلمة (أرسلني). أما السطر الثالث فيجــب حذف الألف من أول كلمــة فيه وقراءتها بشكل مختلف. ولا أريد هنا أن أستعيد كيف قرأت الكلمات الثلاث من دون ألفاتها. فهي معروضــة فــي الفصل المخصص لنقشــ أسيس، الذي ثبــت أن اسمة (سيس) وليس أسيس.

وهكــذا، فقد أعدنا اكتشــاف النقش من جديد، بعد خمسين عاما من اكتشافــه. لقد عثرنــا أيضا على اسم صاحبــه الغريب (تدرههم) الذي ضــاع منذ 1500 سنــة. ثم مكننا هذا الاسم مــن إلغاء حروف الألف الموهومة في بدايات السطور.

بناء عليه، فقد قادني فرض خاطئ حول (ذو) إلى حل لغز اسم صاحب النقشــ. فقــد أردت أن أصلح قراءة روبين وغوريــا انطلاقا من فرض وجود اســم فيه (ذو)، فعثرت علــى (تدرههم)، الكلمــة التي لم أكن أعرفهــا من قبل، ولم أكن على موعد معها، وما كان بإمكاني أن أصل إليها إلا عبر فرضي الخاطئ هذا.

الفرضــ الخاطئ هو الذي قادني، إذن، إلى حل اللغز، وإلى فك شفرة (نقش سيس)، الــذي سخر منا طوال خمسين عاما. ليس مهما، إذن، ان تخطــئ في الفرض. ما يهم هــو العناد والإصرار، اللذين يصححان الأخطاء، ويفتحان الأبواب المغلقة، في نهاية الأمر. وفوق هذا وذاك، وقبلهمــا، فإن ما يهم هو أن أن نمسك ما يعرض علينا بأصابع الشك، وأن نقلبه يسارا ويمينا، حتى نتأكد منه.

أمسك هذا الكتاب بأهم أربعة نقوش عربية من فترة ما قبل الإسلام، وأعاد قراءتها.

أقدم هذه النقوش، نقش عين المريفق (عين عبدات)، الذي عثر عليه في النقب في فلسطين. وهو يبعد عن لحظة انبثاق الإسلام خمسة قرون تقريبا. أما أحدثها فيسبق مولد النبي محمد بعامين فقط. وهذا يعني أن النقوش تغطي قرابة خمسة قرون.

وحين نقول أن الكتاب أعاد قراءة هذه النقوش، فنحن نقصد أنه أعاد قراءتها بشكل جذري، مستخرجا منها أشياء مختلفة تماما.

بذا فالكتاب في جوهره وصية محددة: لا تثقوا بالقراءات السائدة للنقوش العربية قبل الإسلام قبل أن تضعوها على منضدة الشك، وقبل أن تتفحصوها بأعينكم وأصابعكم. فأنتم كأبناء لهذه اللغة من تملكون، في نهاية المطاف، الإحساس اللازم لفهم هذه النقوش، وفض مغاليقها.

وهذا الكتاب في الحقيقة كتاب في فضّ المغاليق.

